إبداعات التفرغ

الطرف الآخر من البيت

رواية

محمد قطب







سكرتير التحرير الفنى
هشام نوار

الطرف الآخر من البيت
رواية
محمد قطب

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا،
القاهرة

الرقم البريدى : ١١٢١١
تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
بريد إلكترونى :
egyptcouncil @ yahoo. com
رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٩٧١٨

الغلاف والإخراج للفنان
عدلى رزق الله





إبداعات التفرغ

[٢٥]

الطرف الآخر من البيت

رواية

محمد قطب

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب: الطرف الآخر من البيت

اسم المؤلف: محمد قطب

الطبعــــــة: الأولى - القاهرة ٢٠٠٥م

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

abalaya St Opera House, El Gwzira, Cairo.
7352396 **Fax**: 7358084.

إهداء

إلى زوجتي...
عشرة العمر الجميل..

يواجهك البهو الضيق بأثاثه القديم فلا تقوى على منع زخم قابض يتسلل كالرذاذ الباهت. تأخذك صورة الرجل فى صدر البهو فتندهش للرأس الملساء، والعين الوامضة. وتحدق فى اللوحة المعلقة فتقع عيناك على مدى بين البر والبحر يحتوى قاربًا صغيرًا،ورجلاً يوجه الدفة ويشد الحبال ويعجز عن السيطرة، ويظل يرنو إلى وجه مستور بغيمة معتمة يلوح ويغيب.. وسط زبد يعلو وعاصفة تهب.

وحين.. تتحسس بنظراتك الطلاء ولونه الرمادى المجعد تحس فجأة برجفة تهزك وأنت ترى الوجه المثلث محروسًا بشعر ينهدل على الكتف والصدر وتخاله ينفلت ليغمر الحائط ويسيل فوقه.

تغيظك دقات ساعة الحائط بطرازها القديم وهى تصدر صوتًا له رنين ناعب يقبض على القلب.

وتجلس وأنت تسأل نفسك ما كل هذا الصمت؟

فجأة ينشق الصمت عن سيدة ترتدى ثوبًا فضفاضًا، ويعكس وجهها أثرًا لبسمة لم تكتمل وتسأل:

- حضرتك تشرب إيه.

يتقدم الرجل فى انحناءة خفيفة ويقبل عليك فى ود واضح، تعكس لمعة رأسه ضوءًا يتساقط من "لمبة نيون". لا تخفى عليك درجة الاحتفاء بك، يضغط على كفك فى امتنان وكأنك أسرته بجميل، وتبتسم وأنت تراه يبحث عن كلمة مناسبة تخرجه من حرج يشعر به وهو يرمقك خلسة وعيناه تقفان على شفتيك..

- أيامنا.. لم نسمع عن الدروس الخصوصية.

ترنو إليه وأصابعك تمسح زجاج الطاولة

- كانت المدرسة عامرة بأنشطة لا حدود لها..

تصطاد تهويمة مباغتة فتسرع قائلاً..

- الآن لا مكان لفناء ولا وجود لنشاط.

تتفلت النغمات التصويرية من تمثيلية السهرة فتتخيل مشهدًا يرجف القلب، ويستدعى صمتًا ثقيلاً.

- كنا نتناول غداءنا الساخن فى مطعم المدرسة

تراه يرتب ياقة ثوبه الأبيض الناصع ويرنو إليك، تسارع فتتّقى بقولك نظرة مزاحمة

- تمتلئ الفصول بالطلاب، ولا مجال لتقديم خدمة...

وتفرش أصابعك على سطح الزجاج البارد.

- الشوارع تقوم بذلك

يمس شاربه مسًا خفيفًا

- كنا نخاف أن يرانا المدرس نلعب فى الشارع.

تنز بسمة خافتة على شفتيك.

- الآن يصادق المدرس التلميذ طمعًا فيه أو خوفًا منه.

ارتدت الروب المنزلى، وأرسلت شعرها، ومست وجهها بطلاء بدا على الشفتين بلون الورد. وضعت صينية الشاى وقطعتين من الحلوى.. وعادت. فرد منشفة صغيرة، والتقط شوكة ونظر إليك، تناولت الشوكة وازدرت قطعة صغيرة من الكنافة.

وقبل أن تنهى رشفتك الأخيرة تراه يتململ، وتعبث يده بالكوب كأنما يتأهب لإلقاء حمل يثقله. وينفرج الفم قليلاً ويقول...

- تمدحك البنات.. ربما لصغر سنك.

لا يخطئك المعنى ولا الومضة المطلة من العين التى تأخذك إلى الصورة فوق الحائط، ولا الارتباك الطارئ الذى لون ملامحه، ولا اليد التى راحت تعبث بأزرة الثوب كأنما تعدها. رنا خلسة، ثم رفع رأسه وقال مسرعا..

- يشهدن لك بالإخلاص

وخرجت من صدره تنهيدة، كأنه يحمد الله على أن نجا من مأزق كاد يوقعه فى حرج.

***

كأنما كانت تنتظرك خلف الباب، تتسمع خطواتك، وقبل أن تضغط على الجرس ينفتح الباب وتستقبلك. يهل الوجه فى غيمته، وتزاحمك رائحة الفل. تمد كفها وتقبض على يدك.. وتدلف بك. يواجهك السكون، والضوء الخافت، والرأس الملساء، والقارب المهتز. يعتريك شعور غريب يتسلل إليك.. البساطة، والهدوء، والذوق. تقف بك على عتبة جديدة، وأنت المغترب عن بيئتك الريفية يعزلك الحياء ويغزوك الخجل.. تشعر بأمان وأنت تراها تبثك هوى ضنيناً تدركه فتلوذ بقلبك تستهديه، وتستدعى أحاديث تدور حولك..

- أستاذ حين يشرح النص.

ترسل البنت نظرتها نحوك وتهمس زاعقة

- ويكشف حب الشعراء

تضغط البنت صدرها بكتاب الأضواء..

- ويفتح قلوب الملهمات

لم يفتك تعليق البنت النحيلة الصفراء

- عينوه ليعلمنا.. الحب..

وحين تلفتّ فجأة انفردت ملامحها وأسرعت قائلة..

- حب الكتب.. الكتب

وتراها تزاحمهن بغيمتها المعشبة، وتكاد ترفع الصوت لتسمعه

- إنه يصطاد العقل..

وتضحك، وهى تهمس لزميلاتها رانية إليك كأنها تخترقك

- لا يصيده سوى العقل..

وحين نهضت وأطللت عليهن، تفرقن صاخبات.

أما هى فقد وقفت زائغة العين، ومبهورة، ترفع شعرها المنسدل وترمى به خلف الكتف فيبدو الصدر فى زيه المدرسى فسيحًا.. تضغط بالكتاب عليه فيلتوى قلبك، وتدير رأسك وتلتقط نظرة من زميل كأنها التأنيب، فتدفع أمامك بالكراسات وتخرج القلم الأحمر وتروح تجرى به تحت الكلمات دون أن تعى منها شيئًا..

ما الذى يجعل البنت تتجرأ.. وتقتحم.. وأنت بخجلك يأكلك القلق، فتدفن رأسك بين الصفحات.. ولا ترفعها إلا حين يأتيك الصوت حييًا وجسورًا.

- أستاذ

وتخترقك العين، وتلوم نفسك لضعفك، وأنت المشهود لك بالحسم والبعد عن المواقف المربكة.

- أحتاج إلى درس خاص.

وانتظرت.. لكنك رحت فى صمتك تتدثر به.

وراحت هى تتحدث عن عجزها فى فهم قواعد اللغة العربية وتركيباتها واستخراج المطلوب من التدريبات النحوية الجافة، وأنها تخجل حين تخطئ فى الإجابة.

وتخشى من سخرية البنات.. وتخاف أن تتعقد من اللغة فترسب.

اعتقدت أن شرحك المستفيض كفيل بالفهم، وجاء ترددك على البيوت نادرًا، والرغبة فى الدرس الخاص تكاد تنعدم..

لكن البنات يحتلن أحيانًا وينجحن..

ألحت كثيرًا حتى قبلت. خفت أن يثير ترددها على المكتب حديثا أنت فى غنى عنه.. فقبلت. هيفاء تكاد تتقصف، يميزها هذا الشعر الأسود الطويل، المفرود كالسبائك، وإن أردت عده فعلت.

***

تهل عليك فرحة، تمكث معك الساعة المحددة ولا تكف عن المرح، وأنت تسائل نفسك.. ما كل هذه الفرحة. وتغمس ألمك فى قلبك وتعجز عن حصر لحظات فرحك الشحيح. تضج بسمتها الزاعقة فتجرح الصمت، حتى تخشى أن يطل عليها والدها.

ترتاح فى جلستها، وتحدق فى الكتاب. تصطاد نظرة قلقة، ويدارى صفحتى الوجه شعر يفيض على الصدر ويلامس الكتاب. تنتر شعرها، وتضع ساقًا على الأخرى وتنحى الكتاب.

- ما كل هذا الضعف!

وأنت تقرأ النص الشعرى الذى يفيض بالعاطفة تلمح رفة العين وتتغاضى عن انطباقة الجفن. ويعلو صوتك لعلك تخرجها من تهويمة تلازم الشاعر وهو يصف الحب ولظاه..

وتفك الجفن حين يتمادى فى وصف المعاناة، وتراه يتذلل فتنظر إليه فى إمعان، وتبتسم، وتتعجب من ضعف المحب، وتعترض على "أبى فراس" وتراه ضعيفاً وهشاً، تشك فى فروسيته.. وتحتد..

- ما كل هذا الضعف

وتطل أمها برأسها فى سكون كأنما تخشى أن تخدش الصمت الذى يشمل البيت، وترنو إليك خفية وكأنها تعتذر، تضع صينية الشاى وطبق الحلوى وترمق ابنتها ثم تشد قامتها وتمضى. تنهض البنت مسرعة وتلتقط براد الشاى وتصب الماء فى الكوب، وتضع السكر، وتذيبه بالملعقة.. وتقدمه لك..

- اشرب الشاى من يدى..
- إنه من صنع ماما..

وتتفرج الشفتان قليلاً فتتهيأ البسمة، وتظل تحمل لها صورة لا تنسى عن بسمتها المدورة.. يترطب الوجه بألق الثغر اللامع، وتنتشى الوجنة وتتورد، ويخفق الصدر فيكشف عن مستوره. تتأود وهى تجلس مازحة.

- يكفى أننى صببته بيدى.

وتضج زاعقة، وتنسى أنها تلميذة لك، وتنهض فاتحة راحتيها فتتخيل أنها تقبل عليك وتدعوك، ويستتر الوجه بالشعر الفاحم، تسرع فتلمه وتدفع به خلف الكتف فيسفر وضيئاً، ثم تلتزم مقعدها ريانة، ترمقك كأنها تناديك وأنت لا تملك إلا أن تعلق فى رجفة ضاحكة.

- ويكفينى.. أن أشربه..

وقبل أن تنهى الرشفة الأخيرة أخبرتك أن صديقة لها ستشاركها الدرس..

وافقت على مضض، وأدركت أن أمور القلب على ما تعودها.. كنت قد استرحت لها، وخشيت أن تفقد اللحظات الجميلة وهى تتجلى بسيطة كالفطرة. نحيت آسفاً طارئاً كاد يقبض على عينيك، لكنها رمقتك وابتسمت.

- هى الأخرى تلميذتك..

***

فى أثناء الدرس كانتا تخطفان الروح منك، وأنت تستغرق فى مهمتك لم تفتك مباراة الأناقة، وانفراجات الفم، وتطاير البسمة ونمنمات الخدود..

حين أنهيت درسك صاحبتك تلميذتك ونزلت صامتاً.. وأنت تستقبل الشارع بسكونه البادى ونوره الخافت، حذرتها من التأخير، ومن مشاغبات الطريق.. حدقت فيك والتزمت صمتاً قلقاً. كانت خطواتها تردد فى تمهل - صدى رتيباً يجسمه ضيق الطريق وطوله الممتد.. وكان جسدها المكتنز لا تبين اهتزازاته ولا حركته الجسور. أوقفتك فجأة وشدتك من يدك وانتحت جانبيًا، ورنت فى ارتباك إليك. بدلت ساقيها وهى تردد

- وأنت.. كن حريصاً.. وتنبه

ضحكت وقلت وأصابع يدك تقبض على منديلك الأبيض.

- هيا.. أوصلك.

كان جسدها القصير يطول ويقصر على أنوار الشارع.. وأنت ترمق وجهها. بدت شفتاها كأنها تجاهدان شيئاً، يكاد ينفلت.. سهلت الأمر فحدثتها

عن أسرتها بعد وفاة الأم، وعن أخوتها الصغار، ووالدها المتعب وأهمية أن تتخطى الظروف الجديدة..

نظرت إليك فى تمعن ولم تغمض..

- أيعجبك ما تفعله صديقتى؟

هززت رأسك وكأن الأمر لا يعنيك.

- إنها تسعى إليك.. كأنك لا تفهم.

تغاضيت عن لهجتها وأخذك عجب من الحديث.

- لا تنسى أنها تلميذتى..

جاءتها رجفة كأنها واقعة تحت وطأة انفعال قوى..

- إنها تريد أن تأخذك كلك.

- تأخذنى كلى!!

وتعجبت من التعبير، وجاءك شعور غامض بحسيته.. لكنك نحيّت المعنى ورفعت رأسك فبدت بجانبك ضئيلة. وحل صمت خدشته الخطوات ولفّته حركة الظل فى امتداده وتلاشيه. ضحكت – كالقهقهة – وأنت تنفى نيتك فى الزواج.

- أرجوك لا تتخ

- دع..

أربكك القول، واعتبرت الحديث خوضًا لا يجب التمادى فيه، فأوقفتها. أشاحت بوجهها الأبيض المستدير ومسحت صدرها بكفها.

- إننى على ديانة أخرى ولا غرض لى فيك..

وغضبت حين لمحت فيك استهانة بما تقول.. ولاحت ملامح الوجه تتقلص حتى خشيت عليها.. ورحت تتساءل عن السبب وراء الحديث عن صديقتها التى لا تكاد تفارقها..

- كأنك لا تفهم كلامى

مسحت الوجه والجسد كأنما تودعك.. هكذا.. داهمك الإحساس، وانفلتت مهرولة.. عكست الحركة اضطرابًا، فظللت تمشى وراءها كى تطمئن عليها حتى لمحتها تدلف إلى عربة عامة.

توجست خوفًا بدا يتسرب إلى نفسك.. وأنت بطبعك متوجس. تبتعد عن التجربة حرصا على اطمئنان نفسى تبتغيه حتى شحبت تجاربك ولم تترك أثرًا عليك، ولم تشكل عمقًا فى نضجك وكأنك تعيش على هامش يوقعك فى مطبات لا تقوى على الخروج منها.. لأنك وقتها تكون قد التزمت، ويأخذك الحياء فلا تقوى على الفكاك مما التزمت.

ظللت تستعيد الحديث على مدى زمن طويل، وهى تواجهك فى صمتها بعد أن اقتحمتك وأخذتك كلك. وظللت تسأل نفسك لماذا لم ترها مرة أخرى منذ هذا اللقاء مع أنهما دائمتا الاتصال.

هل ما تزال تذكر ما قالته يومًا، وتخشى أن تنكأ الخبىء؟..

أغراك السكون، وغيمة الشعر المنسدل، وطيبة الرجل، ووحدتك القاسية، فأعلنت رغبتك.. كادت تنهض لتحتويك لولا نظرة الأب وضحكة الأم الزاعقة وقول العم.

- لمى فرحتك يا حلوة..

ازدهى جسدها بالفرح حتى كدت ترى رجفته الداخلية تطل عليك، وفاح الفم بعبير ألق من لغة القلوب، وناب حياء الأنثى عن الدور الطبيعى، فحمدت الله أن أختار لك الطبع الذى يلائمك. وحين سكنت الروح راحت تحلم بما تحبه الأنثى.. المسكن الأنيق، والهندام الجميل، والذهب الرنان.. وكنت

بحيدتك عاجز عن استثمار عملك، واتجهت إلى الله أن يجعل لك مخرجً فخرجت مع من خرج طلبًا للرزق.

***

يتنامى الهاجس داخله وهو يتابع حركة المطار وتدافع البشر. يشعر بهزة ترجفه وهو يرى إجراءات الوصول. يأخذه الحنين.. ويسائل نفسه. أيقدر على المواجهة؟. وهل يستطيع أن يكيف الجديد حسبما يحب؟ وينحى قليلاً حياءه الذى يعزله فى مسكنه المنزوى البعيد..

لم يقو على إزاحة الوجه وهو يخترق القلب.. فرهن من أجله مشاعره، وارتحل.

يستقبله مطار جدة فى حيدة وبرود..

امتدت الأيادى تلتقط الحقائب.. وتتوالى إجراءات المراقبة والجوازات... وتنفتح البوابات وتعلو صيحات هنا وهناك.. وأصوات النداء على الأهل والأصدقاء تنعش الأفئدة..

يتلفت حواليه ويده قابضة على جواز سفره، والأبدان تتصادم حتى يكاد يسقط.. ويتساءل فى عجب عما يدفعهم إلى كل هذه السرعة.. وبكل هذه الهمة..

لم ينجح فى إقامة علاقة عابرة مع المسافرين معه.. بدوا له معتادين على الترحال.. فندم وازداد توحده..

أنهى الإجراءات.. وراح يبحث عن حقيبته فى المكان الخطأ.. ولما طال وقوفه خشى أن يلفت العين إليه فاستمات بحثًا حتى وجدها مركونة عند

نهاية الممر.. التقطها وهرول فى حذر كى يلحق بآخر المغادرين، وقبض على الجواز.. ومضى

كان وهو ينهى أموره قد لاحظ صفين من القادمين.. أحدهما خاص بالأجانب والآخر مخصص لمواطنى البلد.. الذين غادروا المكان فى سرعة واضحة. خشى أن ينسحب ما رآه على حياته وإقامته فازداد توجسا، وانقبض قلبه.

استقبله فضاء رحب، وصحراء مصفرة مترامية، وهواء لزج مشبع ببخار البحر يحمل بين ذراته سخونة شعر بها وهى تلج إلى مسامه وتلوى صدره.. احتار أين يذهب؟. الأوراق التى معه محددة الجهة. عليه أن يذهب إلى إدارة التعليم بجدة لينهى معاملاته، ويأخذ معه خطاب التوجيه..

كان قد لمح زميلاً له صاحبه فى الرحلة، وقابله أثناء التعاقد بمصر. وتعارفا. فلسطينى يعمل مدرسًا لمادة المحاسبة.. ظل يسرع، ويتخطى حواجز صغيرة، ويحرص على أن يبدو فى مجال الرؤية، حتى إذا تأكد أن زميله قد رآه.. خفف من حركته. وشعر براحة حقيقية وهو يبصره قادمًا.. استعاد بعضًا من وعيه الغائب، وطوى – فى قوة – حنينه الذى يجذب معه حالة استدماع العين..

••• الآن تشعر أن عمرك ينقضى فى مقايضة محزنة، وأن أيام شبابك تكاد تبيعها فى مقابل حفنة من المال، تساعدك على الزواج وتجهيز المسكن.. تلهث كالمذعور، وقلبك على حافة عينيك.. ويحتويك الوهن، ويكوى القلق جسدك وتكاد تحس بمفرداته تفلت منك...

... سأله وهو يراه غائمًا وذاهلاً

- تنتظر أحدًا

آنس فيه قدرة على المواجهة.. تعوّد الأمر كأنه العادة، سفراته متعددة وأقاربه، وأصدقاؤه يعملون فى كل البلاد العربية.. وهو ... لا يعدم صديقًا أو قريبًا.. إن طلبه..

طوى ألمه ولملم وعيه وتمتم..

- لا أحد لى هنا

قال فى همة وحسم..

- إذن هيا بنا..

... حمل حقيبته ومضى، فحمل حقيبته ومضى أيضًا. اخترق الطريق الطولى إلى برحة واسعة.. فهرول وراءه مسرعًا.. توقف عند موقف صغير لعربات الأجرة، وشد قامته ونطق.

- فندق الحرمين.

طوح السائق بشاله الأبيض، وستر فمه ورقبته، ونفذت عيناه فيهما وهو يقول..

- ريالان.

تلفت تجاهه وحدق فيه كأنما يقيس رد فعله وهو صامت ينتظر.. نطق زميله وهو يرنو إليه ويبتسم.

- هيا بنا.

أسرع السائق، وأحدث صوتًا زاعقًا رجّه وأقلقه.. وانطلق بهما.. طوى الصحراء، وتجاوز الرمال الصفراء المنداة، سار يمينًا، واخترق المسافة ذات

المدق الحجرى، وتقاطع مع درب ضيق مغضن الوجه.. ثم استدار فى إمالة مباغتة، فرأى البحر عن يمينه، وشارع الكورنيش القديم يتبدى مبلولاً.. والبحر راقد على الحافة، وموجُه ساكن هادئ إلا من موجة منفلتة ترسل زخاتها ورطوبتها الناشعة...

اخترق شوارع ودروبًا، وأسوقة صغيرة، وانحرف يسارًا ووقف أمام مبنى قديم يوائم طابع الشارع فى مبانيه الواطئة، وطرزه العتيقة..

نزلا الدرج، وتقدما إلى موظف الاستقبال.. أنهيا المطلوب، وعرف كلاهما غرفته.

* * *

•• انزاح حمل ضاغط من فوق صدره وهو يتمدد على السرير.. عضلاته تكاد تتفكك.. وعيناه تطوفان بالغرفة وتقفان عند مروحة بالية يعلوها تراب أسود. زاحمه الوجه فى غيمته الليلية، وأطلت العين غائمة كأنما تعاتبه.

فز مدهوشًا وهو يقبض عليه، لا يفلته، فرّ كما يفر الزمن ويتسرب الفرح.. أرخى وجهه بين كفيه وتنهد عميقًا.

.. ازدحمت أيامه الأخيرة قبل السفر. قرر أن يزور الأهل ويطمئن عليهم. لم يرهم منذ فترة. كان اللقاء حارًا. انتفضت له القلوب ودمعت له العيون.. حين علم والده بسفرته إلى البلاد المقدسة رفع رأسه ورنا إليه بوجهه كله.. كأنما يستدعى تاريخه معه.

لاح وجهه الأبيض محمرًّا فأدرك أن ضغطه مرتفع، وأنه لا يداوم على تعاطى الدواء..

تحتشد اللحظات بتاريخ طويل من المحبة المكتنزة فى القلوب.. منذ وفاة أمه، وزواج أبيه... وهو يلملم أطراف القلب ويسكب عطفه فى حدود.. لعله يريد أن يدربه على الاعتماد على النفس، وخوض الحياة مفردًا.. لم يلاحظ عليه أن أخاه الصغير استأثر بحبه، وتدليله.. أو أقبل عليه فى ضحكة زاعقة، لم يضحكها له حتى بات يتساءل: هل يمسك والده ميزانًا يقيس به المشاعر فلا تميل كفة عن أخرى..! لكنه – دون أن يدرى – كان يدفعه إلى العزلة شيئًا فشيئًا.. يعلم أنه لم يحجب عنه شيئًا استطاعه، ولا حرمه من شىء قدر عليه ولو بمشقه. عاش كريمًا فى حدود ما يعطيه.. وألزم نفسه بما هو ضرورى..

يتذكر عتاب أبيه كثيرًا.. من الذى أخبره أنه يدخن.. ربما تكون زوجته. خشى أن يقلب الدنيا. لكنه كعادته قال عبارته الحاسمة.

– تعلم كيف نعانى لنتعلم.. فلا ترهقنا بمطالب أخرى.

لم يكررها، ولم يصله أنه يدخن إلا بعد أن تخرج وعمل.

•• رنا إلى النافذة وأسدل الستارة بيده. لم تفلح المروحة فى تدوير الهواء وتخفيف الرطوبة.. مسكت عينه هالة ضوئية فالتة.

مد يده وأشعل سيجارة.. تحلق الدخان فى أفق الحجرة.

•• وضع يده فوق كتفه.. أسرع فلمس بباطن اليد أصابع اليد.. وظل يربت عليها ويردد فى بسمة وادعة.

- لا تنس قراءة الفاتحة.. والدعاء فى حجر إبراهيم..

جاءته زوجة أبيه بكوب الشاى وصوتها يضج.

- لا تنسنى فى مسجد الرسول.. قل له إن سنية تسلم عليه.. وتنتظر بشارته.

ابتسم الوالد، فبدت ثنيتاه منفرجتين، وازداد بهاءً وضحك ضحكة وادعة تشى بأن مزاجه رائق.. وإن صاحبتها سعلة مباغتة.

- قل له.. لا يسمع كلامها..

لوت وجهها وأحكمت طرحتها السمراء وقالت معاتبة

- أنت هكذا.. لا تريد لى الخير..

***

غامت عينك والبنت ذات الوجه المستكن فى غيمته تأخذك فى قلبها وتدفئك، وتحكم الرتاج، وتتأبى عليك.. لا تفلتك منها – وتطير بك بعيدًا حالمة بالمسكن الجميل، وبالحياة – معك – التى تفيض بسعادة متواصلة، وتتمنى أن تحقق الحلم.. اليوم وليس غدًا.. وبينما تعالج رتاج قلبها لتطمئن عليك مأسورًا بدمها.. أنبأتها بسفرك.. وبأنك تضحى من أجل حلمها الجميل.. الذى هو حلمك أيضًا.. لحظتها رمت المفتاح بعيدًا، وهددت بسجنك إلى الأبد، بل واعتقالك فى غرفتها المدممة.. ومنعك من السفر.. فكيف تظل عامًا كاملاً بعيدة عنك؟ من يضمن لها الأيام.. وتقلب الزمن والقلوب.. وقلبك أتعبها حتى اقتنصته!!

لن تفرط فيك.. فرحت كثيرًا بسيل العاطفة وتأكدت أنها تحبك.. وأمها تبتسم فى صخب البنت ونهنهتها.. و أنت ترمقها وتكاد تستسلم لرغبتها.. لكن الأم قالت فى حسم.

– لا تسمع كلامها

بعد يوم واحد.. كانت هى التى تدفعك إلى المواجهة وعدم الاستسلام..

احتسى حسوة طويلة من الشاى الذى ابترد وهو يلاحظ غضبها على الأب..

– سأدعو لكما فى كل مكان مقدس، وسأتحين الزمن الطيب وأبتهل إلى الله من أجلكما..

لمح والده ينظر إليه ثم يبتعد بوجهه فى بطء.. كررها مرارًا حتى ظن أن أمرًا يشغله، ويتردد فى إبلاغه.. أقبل عليه قائلاً..

– قل ما يشغلك.. لقد كبرت.

– صحتى قد لا تساعدنى.. فإن استطعت عمل عمرة وتهبها لى.. تكن متفضلاً.

تندت عيناه ببلولة ساخنة وهو ينحنى ليقبل رأسه

– بل هو.. أمر وواجب.

احتجزه فى صدره طويلاً وظل يزمله.. ودعا له بالتوفيق وأسرع بعيدًا يدارى دمعته.. وقبل أن يقبلها سحبته من يده وانتحت بعيدًا.. صوّحت بوجهها واطمأنت إلى أنه دخل المندرة.. ملأ الماء بياض العين وسوادها..

– أنت ابنى.. يعلم الله..

– لم أعرف لى أمًا سواك..

- لا تنس.. أبوك مريض، وأخوك يتعلم وأنت تفهم..

غاص قلبه واحتار كيف يرد..

هى التى أنشأت، وربت، وفاضت عليه.

احتضنها فدثرته بصدرها.. وهو يرتجف راح يخلع نفسه من حضنها خلعا.

***

وصلته رنات خافتة..

كان الزميل الفلسطينى يقف بالباب، وينقر عليه نقرات متوالية.

صكّه بصوت عال، واصفًا إياه بالكسل والخور، وأمره - فى حسم - أن يتجهز فى ربع ساعة ويلحق به فى الاستقبال.. وأغلق الباب وراءه وهو يعاود تحذيره.

بدل ملابسه، وتخفف من "الأردية.. الثقيلة التى جاء بها.. فأكتوبر يفيض بحرارة تشوى الأبدان. ورطوبة تجلب الملل.. وأقبل على زميله فى مودة حقيقية. فهو الوحيد الذى يعرفه فى مكانه البعيد.. فكل من جاءوا تفرقت بهم السبل.. ضاق به الوقت فلم يتوقف كثيرًا عند أحد حتى ولو كان مسافرًا معه.. جاء اسمه فى الكشف الأخير بالملحق الثانى من التعاقدات.. لم يكن أمامه غير أسبوع واحد.. ظل يقطع المسافات كالملهوف. سفرته تلك تكتسب أهمية خاصة.. وبرغم عتاب خطيبته، فالسفر هو الوسيلة السريعة لتحقيق الحلم.. وشعر بخدر حقيقى،.. وهو يبدأ رحلته إلى الحلم باغتراب يداهمه.

- هل ستظل غائبًا عن الوعى كثيرًا؟

تنهد فى عمق

- جاء الأمر سريعًا فأربكنى

أخرج زميله علبة سجائره ووضعها على الطاولة...

- تصور أنك فى رحلة.. وتنعّم بها..

طافت به ظلال من وجوه يفتقدها ، وأمكنة تنادى عليه.. وزميله يحدثه عن الأهل الذين تركوا البلاد.. وتفرقت بهم السبل... فى دنيا الله... البارد منها والحار.. وراحت عيناه تهومان فى البعيد وأنفه المدبب غاطس فى دخان سجائره، ووجهه الجميل يرتعش.. يرفع رأسه ويمد يده ويلمس فى رهافة مساحة من الصدر.

- لكن الوطن.. منتصب فى القلب.

تحسس شعر رأسه، وأدرك لحظة الأسى.. فتخفف قائلاً.

- موطن الحب.. ومنزل الصبا.

ارتشف شايه الذى ابترد وأسرع ضاحكا.

- وحاضن الحلم.

ودس يده وسيجارته بين شفتيه – وأخرج محفظته

- معك ريالات.

- قليل.. أنت تعلم الحظر على العملات فى مصر.

- لم يتركوا شيئًا بغير حظر.

وصاح كأنما أصابته لوثة.

- حتى أنفاسك.. يعدونها عليك..

لم يكن يفضّل أن يستدرجه الحديث إلى شئ لا يحبه.. وأمام بشر لا يضمن نفوسهم.. فالنزلاء يدخلون ويخرجون..

وفى إمالة الأذن إيحاء بالتوجس.. وموظف الفندق عينه عليهما..

والعامل يتلطف معهما كلما أتى بمشروب.

وأدرك زميله ربكته التي سقط فيها ولهفة عينيه كى يصمت فابتسم متوددًا: – يدبرها الله.. هيا بنا.

***

بدا الضوء شحيحًا وهما يعبران الشارع فى اتجاه الطريق إلى كورنيش البحر، وتراءت جدة راقدة – فى وداعة – بين قبضة الهواء الرطب، ورائحة البحر، تتلوى أبنيتها – كالظلال – مع خفقات موج هادئ..

وجدة فى هذا الزمان البعيد من عام ١٩٧١ مدينة صغيرة، يكاد يحتويها القادم سيرًا على القدم فى زمن ضئيل... منفذ بحرى هام، ومحطة للوصول، وللعبور، وللراحة، وللتجهيز لأداء الطقوس الدينية.

لم يندهش حين رأى أجناسًا مختلطة من البشر.. كطبيعة الموانئ.. تداخلت الوجوه والسحن، الأبيض والأسود، القمحى والغامق، الوشاحات والسوارى. الفساتين والجلاليب والقمصان والحلل، زى البحر والسفارى..

لم يكن يتوقع أن يرى النساء يسرن متحررات بالقدر الذى يحفظ للمرأة قدرها ويصون حياءها.. لكنه لم ينس الهنديات وهن يرفلن بثيابهن المعهودة اقتربا من سوق "قابل" الممتلئ بالبشر والأغراض..

تجاوزاه.. وجلسا على مقهى صغير.. اقتعدا كرسيًا مجدولاً بالألياف..

•• صفق الفلسطينى فى حيوية بادية ونادى "قهوجى"..

لفت انتباهه إلى علو الصوت، وقسوة النداء. لكزه فى كتفه وقال مرددًا:

– قهوجى.

ومال عليه قائلاً كالمؤدب:

- هكذا ينادونه.. كما أبلغني الأصدقاء السابقون.

جاءهما شاب.. صغير ضئيل، حاد البصر، يلف رأسه بشال أحمر كأنه عمامة صغيرة، ويدخل جسده السفلى فى مئزر مفتوح، ويلفه على وسطه حتى أسفل الركبة بقليل فكان كمن يرتدى "جونلة" حريمي.. عرف فيما بعد أن اسمها "الحوكة"..

- شاهى واللا قهوة عربى

قوى ظنه بأنه يمنى..

تطايرت رائحة البخور، وفاحت روائح الجيراك وأعواد النرد..

أتى بالشاى مصحوبًا بأعواد من النعناع الجبلى الذى سبقت رائحته وغطت على غيرها.

أعجبه المنظر وأدهشه، فهو لم ير مثيلاً له من قبل.. أشار إلى أحد المرتادين وهو يمسك بيده حبلاً طويلاً مزينًا بترتر وشراشيب ويدس مبسمه الطويل العاجى اللون، ويخرج الدخان مسحوبًا من قائم زجاجى هائل يعلوه تنور متوهج..

طلب أن يجربه.

قبض بيده على اللى الطويل.. ولم يكمل.

راح زميله ينفث دخانه، ويشعل التنور، ويستمع إلى فرقعة الفحم المتوهج.. وتناول هو عودًا من النعناع وراح يلوكه.. وقد سهمت عيناه وبدا كأنه يغفى.

••• يترجرج داخلك مخزون تدسه وتخفيه.. لا تريد أن يطل برأسه، ولا تحب أن تبوح به لنفسك فيربكك.. مع أنك تتلذذ حين تستعيد طقسه الذى داومته وصنعته، وقدمته كعلامة على عشق يتجلى فيك. وأنت تمضى معها درسها.. تنحنى أمام جمالها الذى تفردت به، وتترك عند صفحة وجهها عينيك الخضراوين.. وتظل حين تعود تستحلب حديثها عن العشب الذى ترسخ وأنبت الخميلة.. فتضحك فى سرك لأنها أعادت وصفك لشعرها المنسدل لتصف به خضرة العين.. لعلها أدركت كيف يحّول كلامها المنغم المهموس جسدك إلى نور يشع.. فداومته، واستعادته حتى تخترق!

تراك ترتجف، وتحمر عيناك، فتبتسم. تدير رأسها وترمقك.. لديها يقين بأن قولها المنثور فى ضىّ دفئها يصهر الجسد، ويبعث الوهج.. وتظل تؤلمك فتتكئ بقولها لتحرقك.. هل لاحظت اهتمامك بها فراحت تقترب.. هل شعرت بعينيك تتجولان فوق البدن ويتمهلان ويتكئان.. أبعدك الحياء، وقرّبك الصدود.. أكانت تصدك وهى تلبد منكمشة كقطة أليفة تزوم كلما مشت أصابعك على شعرها الناعم.. وأنت تغوص داخلك، وتغضى حياءً.. أكنت حييًا وأنت تجهد نفسك فى الشرح والتفسير.

وتصنع من الصور والمجاز أكنة للخيال..

هل خطوت خطوتك الأولى

أم هى التى خطت.. وخططت!!!

لكزه بمبسم النارجيلة وصاح

- ستجعلنى أفر منك.. أين ذهبت؟

رنا، وانتظر فعاود الحديث فى حدة مباغتة

- أيعجبك حالنا؟

زم شفتيه، وأشعل سيجارة وضحك قاصدًا

- تمتع برحلتك.. يا فيصل..

لم يره اليوم بطوله مبتسمًا، أرجع الضحك إلى حالة غيابه التى تلازمه لعله يدارى به شيئًا يأخذه ويلح عليه.

- بسم الله.. والله ضحكت.

راحا يتحدثان عن الخروج الذى كان حلمًا مستحيلاً.. والإنفراجة التى حدثت بعد وفاة عبد الناصر، وقسوة الأنظمة وقمعها.. فلولا العداء الأزلى تجاه الرعيّة ما اضطروا إلى التعرض لكل هذه الهزات النفسية التى تعطب الأبدان والقلوب..

- وها نحن نكاد نضيع

نحى المبسم وغامت عيناه قليلاً وهو يطالع عامل المقهى فى حركته الدءوب..

- هل خدمت فى الجيش؟

- لم يصبنى الدور

- لو خدمت لكنت قادرًا على المواجهة.

- المواجهة!! لا تذكرنا بالمواجع..

- مات صاحب النكسة وخلف يأسًا شديدًا..

يمضى الوقت بطيئًا.. ويضغط على قلوب مشغولة.. والناس تأتى وتروح. والليل يطول.. ويزداد صخب الحركة، وأدخنة الجيراك..

- تصور.. الأمر نزل كالداهية

لكنى أؤمن بأن الغد يحمل أملاً جديدًا

طاف بعينيه وشاهد الرءوس والوجوه وقال..

- لعل الاستنزاف يعيد الروح مرةً أخرى
- أنا متفائل بطبعى

كان قد عوّد نفسه ألا يقحمها فى جدل حول قضايا تحتمل المخالفة..

وفى ظل الرأى الواحد المفروض وغياب البشر ونيابة النخبة الحاكمة عن الجميع لم يبق إلا الانضواء.. أو الولوج إلى أبواب جهنم.

.... فى منتصف الليل اقتحموا المسكن النائى، وأسلحتهم تسبق أبدانهم.. وقلوبهم. وجوههم جامدة كصخر.. لم يرحموا أبا على المعاش، وأمًا أنهكها ثقل السنين وألم المفاصل وهشاشة العظام، وطأوا الصالة، وداسوا الطرقة الضيقة، واقتادوه من فوق سريره الصغير. زاحمتهم لهفة الأم وسالت حولهم.. لكنهم أخذوه.

أمام تساؤلات الأب عجز عن الإجابة..

يدرك قوة الصداقة التى تربطهما.. ومتانة زمالة العمل بالمدرسة.. ودون أن يلمسه أو يقترب منه شعر بالألم الحاد يطل من عينيه كالأسنة. وبدا ضعفه واضحًا حتى ليكاد ينصهر من الأسى.. واقترب منه، والتصقا فى احتضان يرتعش بلذة أبوية مجهضة. كان عاجزًا.. ماذا يمكن أن يقول!.. لعله وهو يشرح درسه فى التاريخ الحديث عرج على موضوع المواجهة مع العدو.. وحالة الاستنزاف الدائمة.. وصديقه به حدة فى القول وجرأة.. من يصدق أن يترصده واحد فى معهده العلمى ويحصى عليه قوله، ويسجل رأيه ويشى به!.. لم يكن يصدق إشاعة زوار الفجر والعسس الذين يحصون

الأنفاس.. ويكتمونها.. لكنه الآن موقن بأنهم يملأون المكان ويلجون العقول والأفئدة، ويمنعون نور الله عن خلقه... هم أصل البلاء.

... ظل يكتفى بالمراقبة والسماع على البعد. لم ير نفسه يومًا يرتاد أماكن يكثر فيها الجدل.. والخلاف.

اندهش "فيصل" منه.. ومن شروده.. فأقبل يمتص دخانه ويتلذذ برشفات الشاى المعطر بأعواد النعناع..

هبت نسمة خفيفة رطبت القلب المحزون.. وارتفع صوت عامل المقهى تجاه النصبة وهو يردد .... نارجيلة بالجيراك... وقهوة بالهيل.. وماء بارد..

التقط ورقة من النعناع وراح يلوكها وعينه تحتوى الوجوه..

أقلقه حالة الكآبة التى تقبض عليهم بالرغم من صكة الضجيج وصخب الضحك.. فجأة علا صوته وهو يستشعر حالة من الضعف والأذى ودوام الاغتراب.

- أما آن للعبيد أن يتحرروا

نتر نفسه عاليًا، فانسكبت بقايا الشاى على بنطاله، واحتوى الوجوه، وقاس الحركة، وتصور رد الفعل، وأرهف الأذن.. خشى أن يكون أحد قد سمع.. ولام نفسه.. كيف وصل الحديث إلى هذا الحد الذى يؤذن بضرر.. وهو الذى نأى بنفسه عن جدل السياسة.. ولغن كل ما يأتى من جذرها اللغوى!!

علق "اللّى" فى خطاف القائم ونهض. قبل أن يعودا إلى الفندق عرجا إلى مطعم صغير.. ذكره بمطاعم الحسين.. صوانى الأرز وعليها الزبيب،

وحبات من الحبهان، وكتل اللحم، وأطباق المرق.. والسلطة.. التهما – فى نهم حقيقى – طعامهما.. ثم عادا إلى الفندق.

***

فى الصباح وجد زميله الفلسطينى يلملم أغراضه ويقف أمام موظف الفندق، تبدو عليه علامات القلق والحدة.. فوجئ بعزمه على المغادرة والسفر إلى مقر عمله...

- لم تخبرنى بعزمك..
- هل جئنا لنضيع الريالات فى الفنادق؟

دار نقاش مع الموظف حول مصاريف الإقامة. أخرج محفظته وبحث فيها.. ونظر فى امتثال..

- ليس معى ما يفى تكلفة الإقامة.

ونظر إليه الموظف متأملاً

- ما الحل.. فى نظرك؟.
- إن دفعت لك فلن أستطيع السفر..
- ومن يدفع إقامتك..؟

تقدم وسأل راجيًا أن يكون المبلغ قليلا..

- ما المطلوب؟
- خمسون ريالاً

تراجع خطوة ورنا إلى زميله صامتًا.. والموظف يعيد سؤاله.

- من يدفع لك؟.

كتم غضبه، وآلمه محاصرة الزميل والتضييق عليه.. ونظرة الاتهام العالقة بالعيون.. ما الذى يمنع أن يعطوه ما يكفى الإقامة لليلتين أو ثلاث!! لا يعرفون شيئًا عن أحد، ولا يبذلون جهدًا للتعرف على ما يواجه المتعاقد فى بيئته الجديدة ..

وبدا الأمر كأنهم تخلصوا منه.. وبمهانة مزرية.

وشعر بالمجهول يقترب منه ويوشك أن يفترسه.

رنا إليه فى تمهل:

- إدارة التعليم
- أمعك تفويض؟
- معى خطاب التوجيه.

ألقى عليه نظرة خاطفة وقال..

- لا يفيد.. هو خاص بعملك..

علق كاتمًا غيظه:-

- كان المفروض أن تدبر جهةُ السفر كل هذه الأمور..

اكتنف الوجه قلق باد.. وأسى حقيقى.. طوح بالورقة.

- ألا يعنى ذلك أننى أعمل هنا؟
- صحيح .. فقط من يدفع؟..

.. انتحى به الموظف جانبًا.. وتأسف لحديثه.. وطلبه أن يرهن أغراضه.. وما معه، وليعذره لأنه مضطر لذلك.. فهو يعمل أيضًا وقانون العمل يحكمه..

وحين أخرج أغراضه.. ساعته، وخاتمه، وحقيبته الجلدية الأنيقة التى أهداها له صديق فلسطينى.. أدرك أن القيمة لا تفى بالمطلوب. وأنه يحتاج إلى حقيبته وساعته..

- لك أحد يعمل هنا!.

أعطاه الاسم والتليفون والإدارة التى يعمل بها..

اتصل به وتأكد من البيانات.. واطمأن إلى أنه سيرسل المبلغ فى حوالة بريدية، وأخذ على الزميل تعهدًا بدفع المبلغ المطلوب، وأنه سيسلمه إلى من يضمنه بمجرد وصول المبلغ..

وارتعش الجسد.. عجز عن التحمل حتى كاد يسقط..

ظل يسأل نفسه.. من يضمنه هو؟؟.

ليس له أحد هنا؟..

وما معه لا يكفى رهنًا لمبلغ أقل!!.

ماذا يفعل إذن.. وكيف يخرج من ورطته!.

.. اجتاحه ألم حقيقى.. وخشى أن يكون على حافة تيه.. يجهله.. وأنب نفسه على كمونه، الذى أصابه بالعجز وعلى رفضه أن يخبئ الجنيهات المصرية التى دفع بها صديقه.. خوفًا من أن يضبط متلبسًا بها.. وكأنه الوحيد الذى يفعل ذلك..

ودّع زميله فى ود حقيقى وظل يتابعه حتى اختفى

تمنى لو صحبه إلى الموقف، فلعله يتعرف على المكان، وطريقة السفر.. لكنه قبض على ريالاته.. وشبح المحاسبة يطارده.. وأحس بفراغ عريض وعميق، وأنه مقبل على أيام تحمل خطرًا قادمًا.. وعليه أن

يتصرف.. وأن يعتمد على قدرته في مواجهة الأمور ويقلل بعضًا من اعتماده على الغير.

***

انتحى ركنا نائيا فى بهو الفندق وراح يحصى ما معه.. لم يكن الأمر يحتاج إلى كل هذا الحرص وهو يضع ريالاته فى جيبه.. فلن يفى المبلغ بما يطلبه الفندق.. وليس معه ما يرهنه.. وأمامه سفر طويل إلى جهة عمله.. وجفل وصورة زميله الفلسطينى تخايله وتوحى له بأنه أخذ الأمان معه.. وتركه فردًا، تؤلمه الحاجة.

... بات الموقف يؤذن بالقلق وينأى بالمسرة.. ويلح السؤال.. ما الذى سيفعله؟.. لا مال.. ولا أحد يعرفه فيستدعيه، أو يضمنه.. وهاجسه شعور مزاحم بأن مفاجأة الخروج.. قد تؤدى إلى مفاجأة العودة.. وستمثل عودته مأساة لخطيبته.. وهى التى تمنى نفسها بمسكن جميل وليلة تتحاكى بها صديقاتها..

- سأتحمل .. وأنتظرك عاما بطوله..

.. وتدير رأسها وتدارى دمعات تتندى بها العين، والوجه تقبض عليه زمة تجلب الأسى وتقول فى همس خافت.

- سيمر العام ثقيلاً..

... وأنت ترمقها خلسة وصديقك يبتسم لك، ويدعوك أن تتصالب وتكسر قشرتك الخشنة التى ظللت زمناً تتدرع بها، وأن تتخلى عن العزلة..

وتقترب. ترنو إلى وجهها الجميل، وشعرها الليلى المنسدل على الكتفين والصدر وتبتسم فى رجاء.

- هى سفرة قصيرة .. وأعود

ويبدو الأنف أحمر راشحًا..

تأخذها الأم فى حضنها..وتعطرها، وتمسح وجهها..

تمد يدك، فتستكن أصابعها بين راحة اليد والأصابع الحانية، تشعر بأن عصب الجلد يمشى بأعصابها، فينبض القلب، ويرتجف الحس. وأنت تضغط ضغطة رهيفة وصلت إلى أعماقها.. حدقت فيك حتى كادت العين تحتويك.. وسحبت أصابعها الطويلة الرقيقة وهى تتمتم فى فرحة بادية.

- تلك السفرة لى.. احرص عليها

وترمقها متعجبا ومندهشاً.. وهى تفتح قلبها وتوصيك بها،.... فى غيابك وحضورك.. وسفرتك النائية.. فالحريص من يستفيد من الفرص المتاحة.. والخروج فى هذا الزمان يكاد ينعدم

- لا تخذلنى.. سأتباهى بك..

.. تضحك أمها، فتتبدى وجنتاها مكتنزتين وشفتاها تنسحبان فى رهافة.. وتحكم فتحة "الروب" على نحرها الأبيض

- وجه ابنتى.. يجلب السعد.

أربكك الحديث وكاد يعيدك إلى حياتك، فتابعت تقول فى فرح

- شهر من الخطبة.. وجاءك السفر

تمسح شعر ابنتها الليلى..

- غيرك ينتظر بالسنين

وتغيب في بسمتها الصافية..

تتملى وجهك وتقرأ ملامحك. تتبهك إلى أن للوجوه أسرارها وللأوقات سحرها.. وأن اللقاء بينكما حدث بفعل الأرواح المنجذبة.. وتأخذك بحديثها عن المسكن، والعرس، والهدايا..

وترهف مشاعرك وهى توصيك بالصبر.. وحسن الادخار لتفى بما هو مطلوب منك..

والبنت تتدثر بحياء يسيل من بياض العين وهى تردد على مسمعك

– تلك سفرتى

... يوجعه الموقف، ويسحب منه شعوره بأمانه – فكيف يفى بذلك كله والمأساة تطل عليه مزاحمة.. ولما يقض سوى يومين فى غربته.. كان يلح فى السؤال: – كيف سيدبر مصاريف السفر؟

وينظر إليه زميله الفلسطينى قبل أن يغيب فى العربة وهو يقول:

– تعودنا.. تنبه لنفسك.

لا يزال منظر رأسه بشعره المتطاير يزحمه وهو يصيح بصوت كالصراخ

– تجلد يا رجل.. لا تستسلم.

***

.... وتعود إلى داخلك.. تغوص فيه وتستأمره.. تناوشه وتجادله .. فلديك حلمك الذى سافرت من أجله، وحملت أمانته.. عليك أن تهيئ نفسك للمواجهة وتثبت أنك قادر وتستطيع.. أن تناوش الوقت، والمكان معًا..

لا تجعل شيئًا يبعدك عن قرارك.. وعليك أن تُسقط عزمها عليك.... لا تستسلم...

.... خرج الصوت عاليًا كالقذيفة فاتجهت العيون إليه...

صادته عينا الموظف فزم شفتيه امتعاضًا ومضى إليه... يدرك أنه يقدم الإعاشة... وعليه – هو – أن يدفع.

بادره قائلاً قبل أن يحادثه:

- قل لى... كيف أذهب إلى الإدارة التعليمية؟

اندهش من السؤال: – لكنك مسافر إلى الجنوب!

- المنطقة تتبع جدة.

حدد المكان وأرشده إلى الحافلة ونصحه أن يدخر ريالاته ويتجنب اكتراء عربات الأجرة.

خاضت به الحافلة شوارع ودروبًا، امتصت عيناه ما سمحت به الرؤية.. تعكس الطرق فراغًا فى المساحة والبشر.. يلمح فى الدروب حركة متنامية وسحنًا متباينة.

واجهته لفحة الهواء الساخن المشبع بالرطوبة وهو يطالع البنايات الواطئة.. جذبه المبنى الأبيض بواجهته الفسيحة فمضى إليه.

سأل عن مدير الإدارة .. تأمله الحارس واستفسر منه عن السبب.. كاد يحتد وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.. فأسرع قائلاً بإهمال..

- وكيل الإدارة موجود.. الدور الثانى.. يمين.

دخل عليه فوجده يجلس فى زاوية من الحجرة الواسعة.. المكتب فسيح وخشبه مموّه بتجزيعات بنية جميلة.. وثمة مقاعد مرصوصة.. وطاولة

خشبية بلون المكتب.. تدور مع الحائط أرفف أنيقة وفقيرة فى التجهيزات عليها ملفات ومجلات.. وكتب متناثرة.. ثمة سحابات شهباء تتطاير برائحة البخور.

دارت عيناه فى المكان.. وأحس براحة طارئة.. لكن القلق عاوده مرة أخرى..

خلع رأسه من ملف أمامه.. ونهض.. رحب به فى صدق أحسه.. فخفف عنه بعضًا من ألمه الذى يجتاحه.. وطلب الشاى.. قصد مقعدًا قريبًا.. والتقط كوبًا صغيرًا ممتلئًا بشاى يميل إلى الصفرة.. قدم له الأوراق الخاصة بالتعاقد، وخطاب التوجيه واستمع إليه.. ظل يرنو إليه وحالته بادية له، تشى بضغط هائل يجثم فوقه..

- أنا متعاقد .. ووصلت الخميس..

ابتسم وهو يقرب المبخرة من غترته ووجهه.

- سلامات..

- جدة محطة وصول.. أسافر بعدها إلى الجنوب..

لم تفارقه البسمة وهو ينظر إليه وكوب الشاى الأصفر فى يده.

- كنت أتوقع أحدًا ينتظرنا وييسر لنا سبل الإقامة.. أو السفر.

احتسى رشفة وركن الكوب بعيدًا

- الاعتماد على النفس مطلوب

- لا أعرف شيئًا عن المنطقة.. ولم يسبق لى السفر..

- كان من الأفضل أن تعرف.. من مقر التعاقد..

لعله تأمله، ولم يفته ملمح الاستياء الذى ألم به.. واعترف بأن التقصير متبادل، فلا هو سأل، ولا أحد هناك تفضل بالتوضيح..

- والآن.. أنا نزيل، بفندق الحرمين.. وليس معى ريالات تكفى الإقامة.. والسفر إلى الجنوب..
- .... يدبرها الله.

كان حرصه شديدًا كي يوضح له الأمر على الحقيقة.. فالمال لا يعوزه، لكنه التزم بالتعليمات ولم يحاول أن يهرّب عملة.. أو يخفى جنيهات مصرية.. يقوم بتحويلها بعد الوصول..

- تعلم أننا لم نستطع تدبير الريالات المطلوبة لأمور خاصة بتنظيم العملة وتسجيلها رسميًا على الجواز..

وقدم له الجواز، وأشار إلى قيمة العملة المسموح بها.

قلب في الجواز وتأمله بشكل محبب.. هكذا بدا له.

- المبلغ لا يفى.. لكن صورتك شباب.. والشباب مغامر..

تناهت إليهما طرقات على الباب فكفّا عن الحديث..

دخل شاب سعودى بملابس بيضاء وغترة شفيفة.. يميل وجهه إلى الدكنة، جسده نحيف وقصير نسبيًا..

ألقى التحية واتجه إلى رف جانبى وبحث فيه، وأخرج ملفًا ثم وضع مكانه عدة ملفات.

- منصور..

استدار فى احترام مصحوب.. بحركة توحى بدفء إنسانى.

- سم.

أثار الرد فضوله.. الحرفان ملهوفان، مدمغان.. فى تساؤل يوحى بأن المتحدث يكاد يأمر.. وأن الآخر يلبى الأمر.. وأدرك هو أن المراد من المقطع الصوتى.. هو.. نعم..

- الأستاذ مصرى.. ومتعاقد للعمل فى الجنوب.

خطف نظرة عليه وأقبل مسلمًا .. مرحبًا

- يا هلا..

توجه إليه وكيل الإدارة ووجهه تفيض منه انفراجة تجلب الفرح....

- من حظك.. أن منصور من نفس المنطقة التى ستعمل بها.. وهو قادر على تسفيرك إن شاء الله..

وينظر إليه ويقول: - .. يقيم الآن بفندق الحرمين

وتناول ورقة، وراح قلمه يجرى بكلمات متأنية واكتسب وجهه مسحة جادة.. أنهى الكتابة، ووقع .. ثم ختم.

- منصور.. اذهب معه.. وسوّ الأمر مع الفندق .

وشعر وهو يناوله الورقة بالتقدير الذى يترقرق من عينيه، وبنظرة العرفان البادية، وبارتعاشة الوجه الذى ارتخى رضًا..

... ودعه حتى الباب.. وهو يكاد يذوب خجلاً .. وامتنانًا .

قبض على الورقة فى فرحة تفيض منه وتشمل ما حوله.. لم يصدق إنه سيفلت من تلك الأزمة الطارئة بهذا الحل الذى ما تخيله.

.. وتاهت عيناه فى البعيد وهو يتمتم.. لعل البنت أرسلت دعاءها وراءه!!.

كانت الورقة الرسمية الموجهة إلى الفندق.. تطالبه بأن يقوم بتسجيل قيمة الإقامة والإعاشة، وإرسال المبلغ المراد إلى الإدارة التعليمية بالجهة التى يعمل بها المتعاقد .. لتتوب عنه بدفع المطلوب ثم تخصمه فيما بعد من استحقاقاته المالية طرفها..

انفسح الصدر وانشرح، واكتسى وجهه بعلامات الرضا.. كأن وزرًا هائلاً تخلى عنه.. وباركته القلوب التى أرسلت دفقها معه.. ومنصور يتملاه فى حالته الجديدة.. ويقبل عليه فى مودة استشعرها، فخفف عنه كثيرًا مما شعر به.

- والآن ماذا تبغى؟

•• ونطق فى قوة.. كأنما يخشى ألا يسمع..

- السفر.. حيث أعمل

ويضحك منصور، تهتز غترته.. ويقبض على ساعده..

- ليس الأمر سهلاً.. فالطريق وعر..
ومواعيد السفر متباعدة.. مرتين فى
الأسبوع.. غالبًا..

تتراءى أمامه مفردات المكان، تستقبله بوجه مغاير ومنصور كأنه يناصحه.

- لا تتعجل. المكان يطرد أصحابه.

بان عليه قلق يزاحمه، يعكر عليه فرحته، ويذكره بما نسيه.. وضعف داخله ينبت فى استحياء يطالبه أن يستريح قليلاً من عناء ما أصابه من توتر نفسى سحق أعصابه وكاد أن يعود به..

قال منصور وهو يصطاد هذا التوق الداخلى فى عينيه

- قد تمكث يومين جديدين.

وضغط على يده مذكرًا.. بلقاء المساء..

***

فى بهو الفندق وجده ينتظره، هشّ له، وسعد.. اطمأن لوجوده.. وأنس به، واعتبره سندا له فى غربته.

تجولا فى الحى التجارى القديم، ثم مالا إلى طريق البحر، ودلفا إلى مقهى.. المقهى هى المقر فى النهاية، وهى التى تكسب الحديث متعته.

يرسل البحر هواءه المشبع بالرطوبة.. ثقيلاً ولزجًا.. تتفلت الأضواء فى تباعد، والأصوات تختلط.. جلسا على مقعد مستطيل ومجدول..

.... وتشعر براحة، وباطمئنان يشملك.. والوجه المتخفى فى غيمته.. يبزغ فى هالة من التألق والوهج. تلمس البهجة فيه.. والحزن معًا.. ضفيرتان تتداخلان.. وددت لو قدرت أن تخبرها بأنك تجاوزت أزمة كبيرة، وأن سفرتها بدأت.. وتمنيت لو تخرق الناموس وتأتى بها مجسدة.... لكنك تراها تنسحب... من أمامك وتخذلك ... تولى شطرها تجاه الفضاء... وتتخفى قليلاً – قليلاً. تجذب قلبك معها وصوتها يذكرك... إنها سفرتى. وينفجر صوته ضاحكًا... وزاعقًا وهو يلكزه بمبسم النارجيلة.

– عساك طيب.

كان العمود يرش ضوءًا كالرذاذ... وحصيرة البحر ساكنة تعكس أضواء بعيدة... وهو ينظر إلى منصور فى إمالة رانية...

– هل يجب أن أشكرك.

– هذا.. واجب.

– أزحت همًا كبيرًا..

ناوله سيجارة كرافن.. أشعلها بتؤدة وعيناه تطوفان بالوجوه والأزياء والسحن..

أخرج عددًا من الأوراق وبسطها أمامه.

أخذ نفسًا عميقًا... تابع الدخان الذى تطاير فى بطء...

- بروفة لعمل مجلة حائط..

أخبره منصور بأنه يعمل مدرسا فى المرحلة الابتدائية.. وارتأى المدير أن يسند إليه الإشراف على المجلة .... وأنه يطلب رأيه ومشورته.. وتشاركا فى التصميم وإعداد المواد....

تناولت الافتتاحية... دعم المملكة للتعليم، الموضوع الرئيسى حوار عن مجهودات الإمارة فى تقديم الخدمات للمواطنين والسهر على راحتهم وتحقيق حاجاتهم.. يتصدر الموضوع صورة للأمير وهو يصافح مواطنًا فى مناسبة... فى برواز جانبى قصيدة شعرية باللهجة المحلية. فى برواز مستطيل فى الجانب الآخر قصة حول خباب بن الأرت.. الذى ضحى بنفسه فى سبيل العقيدة... أسفل الموضوع كتبت ملاحظة ببنط مغاير "هذا نموذج يقتدى...".

فى دائرة أعلى اليمين زينت المجلة بآية (اقرأ باسم ربك الذى خلق).

وفى دائرة أخرى على اليسار وضح الحديث (طلب العلم فريضة).

وزينت صورة الكرة بين أقدام اللاعبين مستطيلاً بعرض المجلة وبرز عنوان ببنط كبير... (الأهلى يسحق النصر..).

... ظلا يعيدان قراءة الحوار... والافتتاحية أكثر من مرة حتى وصلا إلى المستوى اللغوى المطلوب...

.. وأوغل الليل.. وأغطش الكون...

وقال منصور وهو يودعه: غدًا فى المساء سنذهب إلى موقف الجنوب.

***

كان أمامه نهار كامل فقرر أن يقوم بجولة بالحى التجارى القديم... تخفف من ملابسه.. فالشمس تسخو في حرارتها.. والعرق ينز بشكل يضجر النفس... والرطوبة تقبض على الأنفاس والصدور..

.... تملى البناء الجديد الذى يطل على طريق البحر قبل أن يلج إلى سوق قابل... كانت البناية تعلو، وآلات البناء تتناثر... عرف أن اسمها "عمارة الملكة" افترست عيناه الأزقة الضيقة والدروب الملتوية... والبواكى الواطئة، والمنحدرات الصخرية الدقيقة... وراعه جمال النوافذ والمشربيات بتقاسيمها العربية القديمة، وبفراغاتها ذات النسب الهندسية والجمالية... تذكرك بأبنية الحسين القديمة.. وطرازها العربى النادر... والذى يبدو.. كأنه الفسيفساء ...

حرص على أن يلم بمفردات السوق... فراحت عينه تضيق وتتسع وتقبض على المرئيات المتلاطمة... يزدحم السوق بأنواع الأنشطة المختلفة. ثمة محلات للأقمشة بأنواعها، وأخرى للجلاليب القطنية والصوفية.. وكذلك الطواقي... والمسابح التى تتدلى بشراشيبها الملائمة للون المسبحة... محلات الأحذية ... والشباشب والأخفاف، والمحافظ، والحقائب الجلدية... تلمع وتزدهى واجهاتها... والحُلل.. والبناطيل.. والقمصان من كل صنف وملة... تغرى بالشراء.

ومحلات الجملة تزدحم بالأرز، والبقول، والسكر، وصناديق الشاى والمكسرات والبهارات بأنواعها وصفائح الجبن، وأجولة الفحم وقطع الخشب الصغيرة، فضلاً عن الأدوات الكهربية الأخرى... تجذب العين مساحات صغيرة كالشبابيك المغلقة والمسيّجة بأعمدة حديدية وواجهاتها من زجاج

لامع... تطل منها العملات الورقية والفضية بأنواعها.. وبجوارها تقبع – فى ازدهاء – محلات الذهب العامرة بالمصاغ والحلى ... الصرافة والذهب معا...

... فى باب مكة حارات ضيقة وقديمة، وأزقة تكاد تطول بيوتها يداك إن مددتهما... وتتلاصق بنايات عتيقة فلت طلاؤها، وبان حجرها الذى شيدت به، وتهدم فى أنحاء وزوايا الجدران. وبقايا مظاهر جمالية تتمثل فى طرز البناء والمنمنمات الخشبية التى بدأت تتآكل، وتتساقط أشكالها...

البيوت تحمل عبقًا زاخمًا من التاريخ.. وحوادث الأيام ومجرياتها تطل من واجهاتها... ولاحت "الرواشين" الخشبية المموّهة بالفراغات والمجسدات الهندسية المدهشة...

قطعة فنية من "الأرابيسك"... والنوافذ تبدو ذات مستويين.. ضلفتان كبيرتان، وأخريان صغيرتان... تنوبان عن الشرفة... وبالجدران فتحات كالمناور، تطل من فراغها أشكال على هيئة النجوم، والطيور، والخطوط المتقاطعة....

... يأخذك الزحام من كل جانب... حتى لتظن أنك لن تجد لقدمك حيزًا تضعه فيه وسط الحمالين بعرباتهم الصغيرة... والمتلكئة...

تأكد له أن القدم يفيض.. وأن يد التغيير لم تعرف طريقها إلى هذا الحى العتيق.. ومع أن البراح خلفهم واسع وعريض وممتد بامتداد الأفق... إلا أنهم لا يفارقون بيوتهم، ولا يحبون أن يغادروها حيث الأماكن الأخرى الأكثر اتساعًا وتحديثًا..

ولعله من أسباب التقارب الحميم البادى فى السّحن والعلاقات وطريقة الحديث والتعامل.. علاقات دافئة.. دفء الزمان العبق...

.. وأنت ترى هذا النوع من الأبنية التى تتكئ فى تلاصق ملتحم.. يدهشك أن ترى بعض الدور الفخمة لبعض الأسر العريقة فى المدينة ..ولقد اتسمت الأزقة والحارات بأسماء عدد من هذه الأسر كزقاق الجفرى، وآل نصيف، والهزاوى ... وبرحة مهنا وحارة السبيل، وزقاق الحلاوة...

... وهو يمضى فى رؤيته لتضاريس المكان دهمه خاطر أرجفه... لو شب حريق فى هذا المكان الذى يشبه التيه.. فكيف ينتهى...؟؟.. نحّى الخاطر... وراح يترقب عينه وهى ترقد – متأملة – على مفردات المكان وطرازه الفريد...

توقف عند مدرجات الدرب المرصوص بمدكات صوّانية وقطع صغيرة من الحجارة... هاله امتلاء المكان بالناس ... كان أغلب من رأى من النساء... بدون مكتسيات بعباءات فضفاضة، ووجوههن مستورة بالخمار... والعيون نافذات كالبريق...

شدته الهنديات ببطونهن الموشومة والعارية وتعجب ألا يحظى هذا المنظر بالانتباه ... لعل الناس تعودوا على الرؤية وخلطة الوجوه والسّحن... فجدة ميناء... وهى ككل الموانئ تستقبل العديد من الأجناس بأزيائهم وملابسهم الوطنية... والشعبية.

زاحمك الصخب، وقبض صدرك ضيق المكان.. وفاجأتك... غطى هواها عينيك... تلوح أمامك كفراشة تطير... صورتها تداعبك وتطل عليك،

وتملأ الفضاء فينبهم ولا ترى سواها... تحتار وأنت تتملى الوجوه... عربيًا، أو آسيويًا، أو كرديًا.. فيسقط الوجه على كل الوجوه النسائية. وتقترب وتتملى، فتروح فاردًا ذراعيك، منافحًا عنه وهو يجمع الوجوه في واحد... وتخشى عليه منه.... فتلتقطه ... وجهك الذى يتبدى ويتأبى على الوجوه... تمنيت لو كانت معك، لكنت صنعت من شعرها خميلة تظلك ومن عينيها مرفأ يؤويك..

ويخرجك صوتها من حالتك... إنها سفرتي... فتخلع البصر مما ترى...

... اقترب من دكاكين العطارة... واجهته الرائحة فتنفس عبقًا جميلاً... كان معظم الواقفين من النساء.... والمكان يضج بصخبهن وثرثرتهن... بدت حركاتهن زاعقة، ومتداخلة ... والبائع يروح صاعدا وهابطًا يلبى الطلبات في سرعة أذهلته. وشى نشاطه بتوقد عقلي...

وساعدته نحافته.

ذكّره الموقف بدكاكين العطارة في بلده.. وبالمواسم، وبالمناسبات الخاصة.

وهو يقترب بحرص وصله صوت ناعم... فتوقف واستمع.

- عبّء لي "عود" ... و"مر" ..

اندست يداه في الأجولة.. وأكياس الورق

أزاحت خمارها فتبدى الوجه مليحًا ... رمقت ما أمامها ثم أسدلته.

- رُبع هندى... وجاوى

تعبئ الأخرى بحبات الفول، وعيدان النعناع البرى..

- ما تنس الشاهى.. والهيل..

وتشير إحداهن بأصابعها الممتدة حتى كادت تصيب عينيه.

- أخرتنى.. كيلو فول وكيلو أرز... هيا

تداخلت مع الواقفات، وانحنت تدس يديها فى أجولة التوابل..

- مالك.. "وين" ... الكارى، والفلفل.. والكمون... والقرفة
وما تنس الصابون.. والمنظف..

شبت البنت الصغيرة على أطراف أصابعها وزاحمت... صاحت عليه ولم ينتبه لها... مطت رأسها طويلاً، ثم شدته من حوكته...

- أبغى شبّة

وهو يعبئ الفول، والصندل، والأرز... حادثها فى إهمال

- بكم؟

- بريال...

لم تمكنه الزحمة من إظهار غضبه.. فتأفف.

قلبت واحدة من الواقفات بعضًا من أغراضها... أدهشها أن تجد حبوب القمح مختلطة بحبات الأرز، فنحته جانبا، ورمت بلفّة معها فطالت رأس البائع. قفز عبر الأجولة فأخذت قدمه معها عبوة من الأرز وأخرى من الفلفل... زمجر فى غضب ، وبدا عليه خوف تقلصت له ملامح وجهه... فسيّده سيخصم ما يتلفه من راتبه الضئيل... ولن يمنحه مزيدًا على صيانته لماله... تجمع البعض من رواد السوق.. وكف الحمالون عن جر عرباتهم... واستند عامل النظافة إلى نتوء وراح يتطلع...

أحس به يزاحمه ويقترب منه... حتى يكاد يلتصق به.. شد قامته وتنحى قليلاً. اتسعت المسافة بينهما فمال عليه الرجل.. كتم قلقه

- البائع أهان الحُرمة

أومأ برأسه، وامتعض قليلاً.. ولزم الصمت وعينه تباعدت لعله يدرك نفوره.. عكس وجهه بعضًا من الشك..

- كل واحدة تشترى ما تحب

ضحك ناخسًا إياه فى جرأة خاف منها

- وتبيع ما تحب.

وصله المعنى.. فاستدار..وراقب المشهد من جديد.

كان البائع قد عاد إلى مكانه وراح يعمل.. وعينه مصوبة إلى النساء وهن يملن ويفاصلن، وتعبث أصابعهن بالأغراض..

وتمتد الأيادى داخل العباءات.

وعلا صوت الرجل الذى كان يجاوره إلى حد الالتصاق

- تنبهوا .. احذروا شيئين .. المرأة والزيت

علا الضحك.. واستدارت الرؤوس إليه، فاتجه ناحية الدكان ودنا .. غاب فى زحمة الأصوات والزعيق وألفاظ السباب.. ورآه من وقفته المتأملة يزاحم.. وينادى على البائع ويطالبه فى إلحاح..

والبائع يروح ويجيء فى حركة هابطة صاعدة . كان يلبى طلبات النساء فى ود واضح.. تغيرت لهجته، وابتسم حيناً، ورمق الوجوه خطفاً حين تسفر، فتخطف بصره.. أو يقبض على الجسد ببصر حاد حين تنطرح العباءات عن الجسد أو تميل قليلاً.. تصطاده عيون النسوة ويتجاهلن ويملن قليلاً. غيّر من سحنته فأراحهن...

... لمح الرجل وهو يشب وينادى على البائع... ويشير إليه...

يتوقف البائع محتدًا ، فهو لم يسمع منه شيئًا، حتى يلبى طلبه. أقلقه الإلحاح، وتداخل الرجل.. أجاب محتدًا ونظرة عينيه تحتويه فى غل وتعكس درجة التلبس التى وصلته.

إيش تبغى!

رآه مرتبكًا..

ارتج واحتار.. وسأل نفسه – حقيقة ماذا يبغى!.. يزعق ويضج بصوته، ويميل بجسده... وينادى ... ويلح... والآن ماذا يريد... خشى أن يفتضح أمره فقال فى هدوء حط عليه كأنه بلادة...

– صابونة لوكس

تفرس فيه البائع مغتاظًا وتمنى لو يقدر عليه... لصفعه....

– كل الضجة لصابونة... "مافى" ...

كوم بعضًا من الأكياس وراح يعطيها لأصحابها، فى حين راح الرجل يظهر غضبه واحتجاجه...

خفف قليلاً من لهجته ليدارى حرجًا ألم به ...

– أنت تحابى النساء...

التوت الرؤوس فجأة، وبرقت عيون النسوة من وراء الخمار فجذبه واحد من المارة بعيدًا.... وهو يردد كالنغم..

– ومن لا يحابى النساء..

وشده مرة أخرى من كم جلبابه

– إبعد...

لمحه يقترب منه، حاول أن يفلت ... فلم يمهله واستدار فجأة. همس فى أذنه كأنما يخصه بنصيحة.

- هن ... يمتن فى الزحام

ويرفع سبابته فى وجهه

- يكوّمن الأغراض ويرمينها ... فيما بعد..

ويبتسم طارفًا بعينه..

- كل واحدة تشترى شيئًا وتخبئ آخر...

.. أنا أدرى بهن.

وهو يبتعد عنه، لمحه يقترب من دكان آخر وعبارته الأخيرة ترن فى مسمعه. - انج بنفسك منهن

... يلم شتات نفسه... ويقرر العودة إلى الفندق.

***

موقف الجنوب غاص بالناس... وبالمركبات والدكك الخشبية، والباعة الجائلين، والمقاهى الصغيرة،... تبدو المقاعد مضفورة، والنارجيلة قابعة بليّها المزين، وصوانى الشاهى تتناقل بين الأصابع، "ودلّات" القهوة تتراص فوق المناضد الكالحة... والمخدات الصغيرة مبثوثة للاتكاء فوق العنجريب... وعربات "الجيب" الصحراوية ساكنة هامدة. تمتد إليها الأيادى تلميعًا، وتنظيفًا، وضبطًا .. حقائب السفر متناثرة ، والأحمال المتنوعة مربوطة بألياف صناعية...

المسافرون يتوافدون فى ضجة من تعود المكان والوجوه...

وهو يرنو إلى المكان فى خطفة عين ... رآه ينتصب أمامه... ويقدّم خدماته... يرتدى الجلباب القصير، والصديرى المزين بخيوط القصب -

طاقيته بيضاء متصالبة مطرزة بخيوط صفراء ... وفى حنية الصدر خنجر مغمود فى حمالته..

قال متلهفاً...

- مصرى!

باغته فتراجع... كان "منصور" قد ابتعد عنه وراح يتحدث مع البعض فى بشاشة وجلبة.. ظلت رأسه تتطاول علَ "منصور" يخرجه من حرجه... لكنه كان قد أخذه الحديث.

اطمأن لما رأى، وشعر بفرح داخلى لتلك التحية التى قوبل بها، واعتبرها تعويضًا عن الألم الذى اعتراه...

وقبل أن يجيبه مد يده وصافحه...

- متعاقد جديد.

أقبل عليه، وحمل حقيبته، وحدثه وهو يمضى به إلى ركن هادئ من المقهى الصغير عن زمن الخلاف الذى حرم الصبيةْ من التعليم المناسب... وبصق بقوة وهو يردد: إن أخطاء الكبار لا تصيب سوى الصغار، وابنه محفوظ ترك المدرسة حين وجد أنه أكثر دراية ممن يعلمه.

ضحك فى صخب فطرى

- أوحشتمونا والله...

لم يكن يدرى أنه مرغوب فيه، وأن الرجل يعامله كأنه يعرفه، أو كأن أحدًا أوصاه به ... ارتأى أن ينتظر ، فلعل وراءه شيئًا ... فما يقوم به يستدعى التشكك... اقتحمه، وقدم نفسه إليه ورحب به، بل وآنسه... واختزل المسافة بينهما.. وأشعره بأنه كالضيف العزيز..

خرج عن دائرة الدهشة وأراد أن يبدو بصورة طيبة تُبقى أثرًا يتذكره أثناء السفر ... فما دام الجنوب محطته فلقاؤهما وارد... ضاحكه، وبش له، وتحرر من جموده، وقرر أن يعزمه على حسابه الخاص واقترب منه، امتدح لهجته وزيه..

- أنت يمني.. ميّزك الزى واللهجة

- الزى تجده فى الجنوب...

وفاجأه بزمة ضغطت على صدره فآلمته، لكنه استشعر الصدق فيها

- رمالنا ارتوت بدمائكم

وهزه فى قوة وهو يردد...

- دعنى أرد الجميل

تردد وهو يقول خجلاً

- دعنى أحييك

علا صوته فى اعتراض ويمّم تجاه النصبة وعاد بصينية الشاى وأعواد النعناع.. هبت الرائحة فأنعشته. أمسك بعود ريان والتقط أوراقًا داكنة الخضرة ... شعر بلسعة المذاق وبلذة الطعم... وتذكر منصور... وهو يلوك فى شراهة أعواد النعناع... شب على أصابعه وراحت عيناه تبحثان عنه... لم يكن يدرى أن احتياجه إليه بات قويًا، وأن علاقته معه اقتربت من الصداقة وعلت على الواجب.

حدق فيه وهو يمس جلدة الجراب.

- لن يفرغ الآن.. ما إن يراهم حتى يأخذوه ويبقوه طويلاً .

تساءل فى خفة بادية..

- من؟
- منصور.

دقق النظر فيه وتشكك في قوله

- تعرفه
- ولد أختى، ولد زين.. أوصانى بك..

غرق فى ذهول داخلى وراح يستعيد المواقف.. عله يدرك متى قابله.. ومتى أوصاه به.. عجز فاسترخى على مقعده واحتسى الشاى مستندًا إلى المقعد الليفى.. ومدد ساقيه على استحياء. وقف أمامه متصالبًا

- والآن تعال معى

حين مال لالتقاط الحقيبة طالبه بتركها وابتسم فى ثقة:

- اطمئن.

أخذه من يده فى ودّ باد..

- من حظك مسئول التعليم موجود.

.... كان يتكئ على الكرسى، ويقبض على "لى" طويل... المبسم فى فمه، وعيناه تحدقان فيهما، يرسل إشارة الترحيب بملامح الوجه،... والقهوجى ينحنى على قائم الشيشة، ويبدل الحجر... يضغط "الجراك" ويضم جمرات متوهجة تحت ضاغط هرمى مثقوب متصل بالقائم بسلسلة رقيقة لامعة...

سعل بشدة، ودمعت عيناه. كبس طاقيته، ونحّى غترته، وأبعد المبسم ورنا فى حيدة ثم مال برأسه ونادى على القهوجى.

- شاهى

ضغط المبسم فى لذة بادية...

- هذا معرفة ولد أختى منصور

هز رأسه

- متعاقد جديد!

- نعم

- يا هلا.. بيك...

حجب الدخان نظرة متسائلة... لكن عينيه وشيتا بتعجب طارئ، فزم جبهته ثم أرسلها فى استسلام.

- فرصة سنحت لك.. وهربت من غيرك.

استوعب الحالة، وطريقة التعبير، وخشى أن يكون الرجل قد اعتبر التعاقد أمرًا كبيرًا.. فلزم الصمت.

نادى على "اليمنى" .. فهرول.. طالبه بالجلوس ومشاركته التدخين... بدأ يتحدث عن الأيام القليلة التى قضاها فى مصر... سكن بحى الدقى... وارتاد أماكن السمر.. والسهر.. ظن وهو يتجول فى الشوارع أن انفجارًا يوشك أن يحدث... وأن محاسبة يجب أن تتم... لكن الوضع لم يتغير بموت الزعيم..

الأمور والله تسوء... والحرب تضغط على الناس، لا أدرى كيف يتحملون؟.

تسمون ما يحدث بينكم وبين العدو استنزاف... أنتم بارعون فى تشقيق الكلام... لكن الأمر والله صعب.

- الهزيمة قاسية.

... الأمر لا يبشر بخير... هل فى صوته نوع من التشفى أم أنه يسترسل لمجرد الحديث!! ما الذى يتوقعه منه... وهو المسئول!!.

حالة العداء القصوى التى حدثت فى الوسط العربى، ظلت عالقة فى الذهن، وموقف النظام من الرجعية ورموزها... ودرجات الاستقطاب فى المنطقة قامت بشروخ عميقة..

وكأنه فهم حالته... فرنا إليه، وهز رأسه كأنما يستزيده فواصل حديثه .. مع أن اليمنى كان يلاحظه بعينيه كى ينتبه...

طوح المبسم فى وجه اليمنى، وخرجت الكلمات منفلتة من غيمات الدخان الشهباء.... وأنت نفسك حين تمشى فى الشوارع... أو ترتاد دور السينما، أو المقاهى، أو تجلس على الكورنيش... ترى الناس يحيون حياة طبيعية... وكأنهم لم يرسلوا بأولادهم إلى الحرب...

ويستند بكوعه على متكأ، ويفرد ساقيه

- إنهم يقتطعون من أكبادهم...

لمس اليمنى قدمه فثنى ساقه

- والله ما بخلوا بها فى اليمن.

حدق فيه طويلاً

- ولا فى غيره.. وذلك هو الداء...

رأيت نتيجة ذلك فى القنصلية... يا الله ... زحام لم أره من قبل، وتدافع وصل حد التشابك... الرجال والنساء فى خلطة تجلب الحياء...

ضحك اليمنى فى صخب غامزاً بعينه

- لو رأتها الجماعة... لأغلقوها...

كانت الصفوف طويلة حتى تعجز عن عدها... كل هذا من أجل إجراء المقابلة ليفوز من كتب له الخروج من النفق... بعقد يعمل به....

نادى على القهوجى... أتى بدلة القهوة... ونصحه أن يجرب شربها

- تقوى البدن... ستتعود عليها..

كان قد تذوقها مع منصور، لم يستسغها... لكنه تناولها... خشى أن يغضب .

... تدرى!! وجهه مسطح، يطوح بذراعه ردًا لتحية عابرة...

تدرى أن الخيوط ظلت مقطوعة زمنًا... حتى إذا تغيرت الرئاسة، انفتحت الأمور قليلاً... وبدأ الخليج يوارب أبوابه ليمر المصريون... إنه تخفيف عن الضغط والمعاناة.

يمد يده، ويحسو حسوة تكاد لا تبين...

- أتصور أنه تدعيم للنظام الجديد....

وهو يتابعه حرص ألا ينازله فى الحديث.... أو تأخذه الحدة فيلزم جانب الدفاع... عاهد نفسه ألا يخوض فى جدل حول الأنظمة، والسياسات. لن يغير نهجه – ظل نائيًا عن هذا المنزلق الخطر... وعليه أن يواصل...

لم يبالغ كثيرًا وهو يتحدث عن حالة الألم التى أصابت المصريين بعد إعلان نتيجة المقابلة والترشيح للعمل.... الانفعالات تعلو وتتداخل، وتتغاير درجاتها حتى لتصنع لوحة قاتمة اللون منبهمة الخطوط... صياح وغضب، فرحة وسكون، بكاء ودمدمة... وذهول وصحيان... شد جذعه، واستقام صدره، وتنفس بعمق.. وتلون صوته وهو يدقق النظر ويصلبه..

- ألهذه الدرجة... يكون التعاقد مهمًا!

أعاد فثنى ساقه اليمنى، انحسر الثوب كثيرًا، فبدت جلدة القدم جافة، متشققة... وحسا حسوة طويلة... وقال فى تنهيدة...

- غيرك تمنى لو يدفع من عمره للفوز بعقد...

...... استنزفت الظروف القوى الكامنة فى النفوس حتى كادت تفرغها من القيمة... وغاصت سهام الحرب فى القلوب، وتوالت الأزمات، وفقد الناس توازنهم وقدرتهم على المواجهة.... والمساءلة، فاستسلموا... وعكست الملامح ما تمور به الصدور.... انبهم الأفق، والعدو يعربد على الضفاف.... والداخل يغلى، والعيون معلقة بالأفق... علّ نجمًا لامعًا يبزغ...

***

لم يفتك ما كنت تراه من ممارسات محزنة وأنت تتردد على القنصلية..

كنت تبرر ما تراه بأن الحاجة تقهر العقل أحيانًا... وأن الخروج فى صالح الدولة.. دعم مالى، وتخفيف لضغوط الداخل ... كنت تصطحبه - حينًا - فى ذهابك.... وها أنت تراه يرمقك من خلف النظارة بزجاجها السميك.... تتقلص ملامحه كأنها تتعارك وهو يجذب النظارة ويلقى بها على الأوراق.. وتندهش من حركة الأصابع وهى تضغط الجبهة، وتخلف أثرًا محمرًا كالجرح..... يضع رأسه بين يديه، ويحدق فى الورقة الكالحة...

يخدعك منظره، وجبهته المدببة، ورأسه الصلعاء وحاجبه الكثيف، وجسده الضئيل.... لكنه كان إذا انفعل أغلق الزملاء الباب، وسدوا المنافذ، وأتوا بالماء، يعالجون به رجفته التى تشمله كما الحمى.... يمسح الزبد... ويمسد الوجه... والرقبة... وجلدة الرأس...

تدرك أنه يعانى أزمة مالية... أسرته كبيرة، ودخله قليل، وزوجته لا تعمل.. وأمية.. وكنت تلمح خجله وهو يتحدث عنها... كان حظه من الدروس قليلاً... والزملاء – فى ظل المنافسة – تركوه... وحيدًا....

جاءك زميل وأسر لك بالحكاية...

ظللت تضحك... حتى دمعت عيناك... وهو يسرد لك...

.... كان قد اقتنص درسًا فى مادته التجارية... وكأنهم استكثروه عليه فعلق زميل... ضاحكًا

- لابد أنك ستدرس للأم.

لم يفتك وهج الغضب فى عينيه، ولم يخدعك تجهمه... استللت منه حزنًا دفينًا، يترقرق تحت جلده الظاهر... فالبنات يسعين إلى المدرس الصغير، أو الوسيم، أو العازب... ملامحه أبعدته كثيرًا...

أخبرك الزميل بأنه حدد قيمة الساعة بثلاثة جنيهات، وأنه يتعاطى الأجر أولاً بأول...

وضحكت وهو يحكى الموقف... خشيت منه فغادرت المكان... جاء موعده فى مناسبة خاصة... ازدحم المكان بالأهل، والأقارب، والجيران... وخاف لدرجة الرعب... أن لا يتمكن من إعطاء الدرس... فلا يحصل على الأجر..

غاص قلبه، والبيت مفروش بالبشر... والجنيهات الثلاثة تفى... بمتطلبات طارئة.... وامرأته شيعته بنظرة خدشت رجولته...

لمت نفسك فيما بعد وأنت تستمرئ سرد زميلك... بفكاهته الدامعة، وصخبه الزاعق... أقبل عليك وعيناه تسحان بالدموع، وهو عاجز عن ضبط نفسه...

- تصور.. طلب من البنت – تلميذته – أن يعطيها الدرس على بسطة السلم...

... ومع أنك لم تملك نفسك من مجاراته... إلا أنك ظللت يومك حزينًا... حين علمت أن البنت عرضت عليه أجر الحصة... فقبله... وهو يتمنى لو قبضت روحه ساعتها... تستدعي الموقف ... وهو يرنو إليك... والدخان يتطاير، واليمنى يداعبه ويشاطره... وزميلك يحدق فيك... ونظارته السميكة تتأرجح فى يده... ويصرخ فجأة... بان لحظتها أن ألمًا عميقًا يسكن الوجه والعين والملامح... وتطلع إلى السقف كأنما يهرب منك، ويخشى عليك منه....

- كنتُ جديرًا بالتعاقد منك...

يلملم أوراقه فى عجلة ويتمتم وهو يواجهك فى صوت عال

- الله يصر على تعذيبى...

خلقة دميمة... ورزق شحيح.

***

ينقبض الصدر وهو ينسلخ من نظرته...

ويراه يصب عينه عليه... ويؤرجح الفنجان بين إصبعيه.... فيضيق صدره، ويدرك أنه يقصدِ إيلامه...

لم يدر كيف علا صوته وهو يمسك عينيه

- الحاجة متبادلة...

فجأة يقتحم منصور المشهد فى حركة زاعقة تعلن عنه...

أزاح... همًا تسرب إليه... وحرجًا كاد يغلبه... بش الرجل له... وأجلسه بجانبه....

وقال منصور فى بشاشة وود.... وهو يتطلع إليه..

- يوصيك به... وكيل الإدارة...

ثم ضحك غامسًا المبسم فى فمه.

***

كانت العربة الجيب تسير فى بطء ورجاتها تحدث ألمًا فى الأبدان..... تمتد الأيدى فتقبض فى قوة على ما تطوله.. المدق الذى تعبره محاط بتلال رملية متكلسة طالها نشع البحر.... وملوحته... خلا من الاستواء فلاح من بعيد كثعبان صحراوى يتلوى على نفسه، يتكور وينبسط فتحتار متى تستدير أو تتوقف.

ترتطم العربة، وتتزلق، تغوص وتندفع.. تتطاير الرمال الساخنة... فتلسع الجلود والعيون، يتفادى السائق حفرة معتمة فترتج العربة وتتخطف الأرواح.... تعلو الأصوات محتجة.. والولد الصغير يبكى فى رجة مفاجئة.... وهو صامت لا يجيب، يحبك غترته ويرسل بصره إلى الطريق ممعنا....

لم يلتفت إلى الصغير، وهو يعابثه... ولم يرد أصابعه النحيلة وهى تتحسس مقود العربة... يطل بعينيه عليه ثم ينكمش فى صدر أبيه دافسًا رأسه فى شعره الكثيف..

بدا الأب ممتلئًا، والأم ممتلئة..... لم تخف امتعاضها وهى تمسك بالصغير فى كل رجة... البدن يرتج، والشعر يتطاير... لم تكن قد لبست العباءة بعد.. ولم تكن قد سترت شعرها، فنالها من العيون ما كدّرها.

ابتعد السائق بالعربة، ودخل إلى السهل الرملى الممتد. علا حتى لامس جانب التل ثم استدار ونزل فلاح البحر ساكنًا، والطيور الشحيحة تحوم... ثم تهوى.

•• يجابهك الفضاء الأصفر، وتنسال الحرارة انسيال موجة مراوغة.. والقيظ يحتويك... تأخذك الخيالات المرتعشة فتراها أشكالاً تتجسد ، تقطع عليك الرؤية، وتتبدى لك وجوها، وأحصنة، أظلافا وذيولاً، أجسامًا، وأدمغة.. وتروح تمعن النظر، من يدرى فقد تمسك به. يشاغلك حتى إذا اقتربت فر كالسراب.... فيأخذك شعور باللاجدوى، وأنك عاجز أمام انفساح كونى يحتويك بصفرته وأشباحه، وشمسه التى تذيب الحديد... كنت آمنًا وساكنًا كالوداعة، أغواك قلبك فانصببت كالعاصفة، تسربلت به واختفى قلبك... ترنو إليك فى ابتهال أن تأخذها معك... وكنت تزهو، والوجه ينبسط، والعين تبتهج... تناجيك آمرة... وهى ترى قلبك على وجهك... دثرنى بدمك... وأنت ترى الممتلئة تذيب ولدها فى جلدها... تجالسك البنت التى شقت الجلد وتسربت دمًا.. تدثرها بدمك وتستعطفها أن تكف عن ولوجك...

••• باغتته انحدارة مفاجئة.. فقبض فى قوة على مقعده...

لم تمنع التلال وجه الشمس، ولا حجبت لظاها... لم تستدر الشمس بعد... فاختار السائق براحًا رمليًا، تناثرت فيه أشجار من الأسل، ونباتات صحراوية فى حضن التل.. الفروع شحيحة الورق تلقى بظل رقيع كالرمح لا يمنع القيظ... لكنه ظلّ على كل حال... وهو غاية المنى فى صحراء لا ينقطع لهيبها.

توقفت السيارة على جرف كثيب رملى...

امتدت الأيادى بملاءة قطنية داكنة، وربطت أطرافها بين فروع الشجر، فسمحت بمساحة من الظل أشاعت بعضًا من البهجة وأتاحت راحة مختلسة لأبدان متعبة.

كان المسافرون خليطًا من المتعاقدين وأبناء البلاد... قلّ الحديث بينهم أثناء السفر، لكنهم تقاربوا فى جلستهم.

لم يكن بوسعه فعل شئ، فأسند ظهره إلى جذع شجرة خشنة القشرة، وراحت عيناه ترنوان فى كسل كالخدر.

تنحى الرجل الممتلئ قليلاً... وفرش سجادة صغيرة جلست عليها امرأته. كساها ثوبها الواسع فاحتجبت. أدخل يده فى الحقيبة وأخرج منديلاً زهرى اللون... فردته وأدارت ظهرها وفرشته على رأسها وانسدل حتى الصدر فاستتر الصغير وهو يرضع.

أخرج السائق "جيرك" الماء، وفتح غطاء العربة وصب قليلاً..

واستدار ثم أخرج كرتونة صغيرة، فتحها ورص الشاى، والسكر والأكواب... وأدار رأسه كأنه يتلفت..

لم تفته حركته وهو يقتعد حجرًا رمليًا. الوحيد من الركاب الثمانية الذى يرتدى العقال، فكه وعلقه بفرع شجرة وعاود النظر ثم نهض، وضع طرف ثوبه فى تكة سرواله الطويل ونتش فرعين جافين، هشمهما، وحفر حفرة صغيرة ورص على فوهتها حجرين ... وراح يشعل النار.. ويضع كوز الشاى...

تخفف رجل التعليم من ثوبه، وكشف سرواله الأبيض المطرز عن ساق ناشفة، معتمة اللون. ظل يدخن وحوله اثنان لا يكفان عن الحديث، وهو يرمقهما ويبتسم.. توجس منه...

أخذته الرمال المتحركة كالموج وسار قليلاً... اعتلى كثيبًا، وشاهد الرمل المبسوط بدرجاته، وتعجب كيف تصنع الرياح الخفيفة من حصيرة الرمل شكلاً جميلاً ومدهشًا.

ثمة خيمات متناثرة... قرب بطن التل، وخيمة ممتدة أرخت حوائطها، ولم يعد منها غير سقف يسترها.. وغنمات هاجعات تحت أشجار الأسل، وفى جنبات التل..

تخفف السائق من ملابسه، وبدا سرواله هادلاً، ولحيته تحتجز قطرات مياه شحيحة، وجدائل شعره تتلوى مغبرة، وسمانة ساقه ككدمة محتقنة. يلوك السواك فى حنية الفم... ويبتسم..

تقدم إليه وناوله كوب الشاى... رآه ينشغل بالخيمة المفتوحة فقال فى عجلة..

- المرة القادمة لن تراهم.

لاحظ عليه دهشة ممزوجة بالحزن ...

- لا تندهش... حياتهم ترحال

تناول كوب الشاى وامتن له كثيرًا

- لست وحدك!

نظر إليه، وتعجب أن يظل صامتًا... كأنه فى غفوة...

- تتأثر سريعًا

وقدم له قطعة من خبز التميس..

- كلّ من سافروا معى دمعت عيونهم..

وهو يستدير نحو غطاء العربة، ابتسم، وغمز بعينه.

- لست وحدك..

وحين رفع السائق يده فى إشارة إلى البعيد، رأى بدويًا يخب فى مشيته، الصديرى مفتوح، والغترة ملفوفة على الرأس كالعمامة... اقتربا، وتصافحا.... أخذه إلى العربة وأعطاه كرتونة ممتلئة بأغراض كثيرة...

- كل ما طلبت "الخالة"...

ربت بكفه على صدره.

- تدعوك... لشرب القهوة بالهيل العتيق

أشار إلى رجل التعليم ثم إلى الآخرين...

- متعجلون...

ثم ضحك وهو ينظر إليه واقفًا، وصامتًا.

- "البذورة" ... ينتظرونهم.

- ننتظرك فى عودتك...

***

تموج التلال فى عينيه، ويتغضن وجه الصحراء فى فضاء رملى ساخن يقبض على الروح. هجع كل شىء.. وراحت الهوام تندس فى الجحور، وتحت الصخور، وفى شقوق الرمل.... وتحت قشرته الرطبة.... ويظل للبحر فى احتجابه خلف الكثبان حضوره فى هبّات شحيحة، ورائحة تحمل عطنًا ويودًا ورطوبة..

فجأة صرخت المرأة الممتلئة. نترت جسدها فى قوة. جذبت الصغير وقفزت. ظلت تدور، وتلف، ثم توقفت وعيناها تدمعان... وصدرها يرتج.. راح زوجها يطمئنها ويستجديها الصمت والهدوء..

تجمع الرجال فى هبّة واحدة.. لمحه السائق صغيرًا داكنًا.. ينسحب فى الرمال كما لو كان يسبح فى لجّة من الماء. لم يبد منه إلا حركة التلوى، والغبار الخفيف الذى يعلوه، وانسيابات الرمل المصاحبة. أسرع فى عدوة محسوبة وانتظر. سكب عليه ماء وحدق فيه، غرس فرع شوك مدببًا وأفسح ساقيه.. حتى إذا لامس العصا وشعر بالبلولة توقف ورفع رأسًا... صغيرة مسودة وعيناه ضيقتان لامعتان، وجلده أصفر مرقش، ولسانه ناعم كالإبرة... يلوح ويختفى... ثم تسحب حتى اعتلى الفرع وسكن...

لم يكُف رجل التعليم عن همهمته وتحديقه، ولم يغير وقفته أو يبدل ساقيه. رفع يده فراحت عين الثعبان تتابعها ... وانقضت الأصابع على رأسه وضغطت ، تمدد الثعبان على نفسه.. وفتح فمه...

برز اللسان والفك... أمعن النظر... ثم استقام جذعه وتنفس فى عمق، وتمتم...

- لا يؤذى...

خرجوا عن الصمت الراجف وصوبوا العيون.

- ليس من النوع السام...

وحين حاولوا قتله منعهم. لم يعلق على احتجاج المرأة وهى تدمدم أن إطلاقه إساءة لها وخطر على غيرها.... رنا إلى الممتلئ، وربت على صغيره..

- دعوه لمصيره..

لم تفته حركة السائق المعترضة، ولا صاحب العقال فى بصقته، وقال فى نبرة عالية

- لا تحسبوه آمنًا.. هذا الذى أخافنا

ردد البعض فى تفكه موقع... هذا الذى أخافنا..

وغاصت عينه فى عين هذا الذى خاف وانتحى ركنًا بعيدًا ساهمًا، وشاردًا..

- فى الصحراء إن فقدت سلاحك خاصمك الأمان.

***

•• لاحت الشعاعات كأنها أسلاك صفراء منفلتة، وعيناك تدوران فى الفضاء المرصود بقُنن الجبال النائية كأنها خط معتم على حدود الأفق. وتتعجب.. كيف تستمر الحرارة لاهبة وكاوية وأكتوبر ينسحب آفلاً. وكيف لم تأبه لفزعة الرجال، وظللت مكانك على كثيبك الرملى بخبزك اللدن وشايك الكهرمان...

غابت عنك الأذن فلم تسمع إلا "وشيشًا" يذكرك بحفيف الشجر حين يكتنز بالورق.

وأنت مبهور بالفضاء ومستمع إلى وشيشك المخضر تجلى لك فأدمنت الرنو غافلاً... فردت كفيك، واستقبلتها فى راحتيك "أحبك".

تكاد المياه تصطفق، وتعلو حتى تلامسك، وأنت قابض عليها والمقهى الممتد على ضفاف النيل يعبق برائحة وردات متناثرة....

وقلبك يخطفك، فتدفعه ضاغطًا كي لا يفضحك... ولسانك لابدُ لا يطاوعك....

وأنت تشرح قصائد الغزل ظللت تسرد مفردات الحب، والعشق والجوى والوجد، والنوى، وتسرف في المعنى، وترنو إلى المغزى... فلم يفتك الوجه المرتعش، ولا الوهج الذى خطف بصرك فأعماك،.... وظللن ينتظرن...

لو اكتشفن أنك لم تعرف قلق المحب، وأنك بلا تجربة لانصرفن عنك... وفقأن عينك المحدقة... مع أن قلبك طرى كقلوب المحبين...

لم تحرقك التجربة، فبدوت فى هواك كالمحايد...

تدارى شعورك فى صدرك، مع إنك خير من يتذوق عذاب الشعراء وحبهم... أيمنعك الحياء... أم ترى البوح ضعفًا!! فكّ نفسك، واخلع عنك طلسمها... وبُح ... هل تطوى السماء نجومها إذا قلت... أحبكِ... أتظن أن الله خلق القلب عبثًا؟

تتلفت كأنك تخشى أن تكون قد طارت وحومت، والقلوب مبثوثة على الأرائك، وفوق المناضد - خرجت من صدورها - وزخات الدماء الصاهدة تحيط بك...

... وأنت تحب، وتخجل. أفى الحب ملام!!

وكأنما تعانى من ندبة مدممة.. فتحت قلبك وصحت

- وأنا أحبك.

وانتفضت - أمامك - قائمة... فردت ذراعيها... كأنما تريد للصوت المنفلت منك أن يعود إليك... تحوطه بدفئك. وبكت وهى تهمس فى تمتمة كالصلاة.

– هى.. تعويذتى التى تحرسك..

هل وصلك الحب فداريت دمعة تقف على حافة العين!!

وهل آنسك فأنساك ما حدث!!

***

لبدت المرأة الممتلئة بجوار زوجها وعكس وجهها غضبًا مكتومًا، نحت الصغير عن صدرها وأعطته لأبيه وفردت منديلها وشدت به شعرها وعقدته. لم تخل عيناها من نظرة التأنيب.. لم تنس أبدًا احتجاجها على السفر معه. كيف تترك عملها وأهلها وتلحق به فى بلدة جنوبية منزوية وبعيدة عن الحياة.. من يضاهى الإسكندرية بأية مدينة فى العالم؟.

لكنه رهن السفر بمصاحبتها.. فعليها أن تكابد مثلما يفعل، وأن تؤانسه..

ولم تترك أمها ذريعة للسفر لم تستخدمها، فهى كبرت..

ولم تعد قادرة على خدمة الأبناء وأولادهم، وأنت فى الحقيقة أولى بزوجك، "وأنه لن ينسى لك صحبتك له"... واحمدى الله أنه راغب، غيره يمكن "أن يترك الجمل بما حمل.. ويرمى كل شهر عددًا من الريالات... ويراكم مرة فى العام كأنه غريب، اسمعى نصيحتى.. الرجل فى الغربة لا يحتاج لشىء قدر احتياجه لامرأته تؤنسه وتؤانسه.."

– ابعدى الشيطان .. وبخّرى نفسك..

تراه يحوط الولد بذراعه المشعرة... عيناه ساهمتان فى البعيد. لو نفذ اقتراحها لاستراحوا جميعًا... شهر واحد وتلحق به...

أمسكت فرعًا جافًا ونكتت به الرمال. مدت كفها وشدت قميص الولد... هشت الذباب، رفعه إليها فوسدته فخذها..

- قلت لك اسبقنى!

هومت، وتقلص وجهها وخرج الكلام مدغومًا كأنها تحادث نفسها.

... وحطت عيناه على الشفتين وأدرك أن الألم مكتوم.. لقد سعت معه بكل الطرق للبحث عن عقد.. تعلم أن مدرس التربية الرياضية تبور سوقه فى الخليج.. وهى التى تسعى إلى نقلة جديدة تنعم فيها بالملابس الأنيقة... والسكن الواسع.. والسيارة إن امتد العقد... تدفعنى دفعًا... ثم تتخلى!! كانت تملأنى زهوًا!!

- تعرفين أنى لا أستغنى عنك..

رمشت عيناها، وجاءها الدمع طائعًا. أحنت وجهها على كفها وارتجفت

- كان من الأفضل لو تأخرت قليلاً

- ستمرين على هذا الطريق نفسه... وتجلسين هذه الجلسة.

وهى تبعد ذبابة صحراوية ملحة

- كنت دبرت نفسك

وتلفتت.. صادت وجهه الباهت، وجلسته المقعية، ورأت الرجال يرتجون حول رجل التعليم، والسائق فى طريقه ناحيتهم.. وتعجبت من هذا المصرى الذى ينأى بعيدًا... ولم يكلف نفسه أن يطمئن عليهم... وتمتمت كالمغيّبة.

- قل لى .. أين نبيت ليلتنا؟

يعلم أن الطريق ممتد، وأن الفجر زمن الوصول، وصديقه ينتظر.. كيف لم تحمد الله وهى تعلم أن لى صديقًا بالبلدة. ماذا يفعل من ليس له صديق يعينه أو يدبر أمره... فى بلدة كهذه!

- لى صديق دبر كل شيء

حدقت فيه، ثم ضيقت عينيها، ولوت بوزها، ونظرت – مؤنبة – إلى التلال، والرمال، والغنمات الرامحة... و... تمتمت

- كل شيء!!

***

... شيء ما كدره، وأرجف بدنه، وهو يرنو فى إطالة تجاهها. همّ ثقيل وقع فى المسافة الضّيّقة بينهما فاتسعت وتباعد الكتفان... صاد غبرة "صحراوية" طالت تدويرة الوجه الأبيض فأعتمته. وأحزنه أن يرى الرجل – على امتلاءته – منكفئاً برأسه إلى الأرض وعيناه شاردتان تحدقان فى الرمال الصفراء وهى تتسلت من فرجات أصابعه كالخيوط الواهية...

ونهض...

تراقصت أمامه الوجوه، وتذكر عذابات البشر فى السفارة، وفى الطوابير الطويلة بطول الليل وثقله، والإهانات التى تلحق بالجميع.. وتساءل – فى حزن غاضب – ما الذى يدفع هؤلاء المعذبين إلى الترحال! ولم يطردهم وطنهم بكل هذه القسوة، حتى ليبدو كمن يريد التخلص منهم!

استقام جذعه، وطوح بذراعيه، وهبط...

شغله حزن المرأة ولهفتها على صغيرها.

وهو يخب فى مشيته وعيناه لا تفلتان وجه الرجل المنكفئ... تذكرها... ما الذى يمكن أن تفعله لو صادفت الموقف نفسه؟ أتضيق بالمكان الذى يأكل الفرحة، ويمتص الرواء! أيمكن أن تفعلها فى – كبر الأنثى وتخيّره بينها

وبين سفرته! أم... تذثره بشعرها الليلى المنسدل؟... وابتسم... وراحت بسمته الرائقة تفيض على وجهه وتطول الأفرع الكليلة وتمشى على وجه الرمل فتشكله أهلة مقمرة...

واصطاده السائق متلبسًا فاهتاج. هز يديه وصفق فى إيقاع بدوى، وكتم الرمل دقات قدمه الموقعة.. دار بجسده ودورات ملتفة حتى شال الهواء "حوكته". بدت سعادته حقيقية، وعكس وجهه وذا خالصًا... هو وحده يخفف عليه ارتباكه وحيرته.. إئتنس به وهو يلتزمه محتضنًا فى موقف الجنوب "ومنصور" يأتمنه عليه ويوصيه خيرًا.

- النبى تبسم

واستدارت الرؤوس،وضجت الصحبة بالصخب، وفز الأنيق بعقاله حاجلاً.

- النبى تبسم... النبى تبسم.

شمله حياء حقيقى... وغزاه ضعف يجلب البكاء...

لوح بيديه، فاردًا منديله فى بهجة نادرة.

مال تجاه الرجل وامرأته...

ألقى التحية فأدارت المرأة وجهها، وحين رأته، أعادته ممتعضة.

علا زوجها برأسه وردّ التحية.

جلس القرفصاء على نتوء رملى متكلس

- كيف حال ولدك؟

ورنا إليه فى حذر. فضل الصمت فالأمر انتهى. لكن عينيه وشيتا بلوم خفى.

كنت غائبًا... فاعذرنى

بصّت إليه فى عجب وقلبت شفتيها فى زمة طويلة يمين الفم... وهوّمت. وضحك الزوج قائلاً فى ريبة

- حمدًا لله ع السلامة..

وبركن الفم المعووج قالت...

- وكيف حالهم!

أدرك كم هى متألمة من موقفه...

- من؟

- من كنت عندهم!

أسرع الزوج بالحديث ليبعد قصد الإساءة

- أول سفر لك!

- وآخر سفر

ضغط على يده متوددًا

- هل زرت الواحات؟

زوى ما بين الحاجبين، ورمق الزوجة. خشى أن يجيب فنفى الأمر برأسه

- ولا سيناء!

أحنى رأسه وشعر بخجل، واعترف بخطئه. فهو لم يزر معالم الجنوب، ولا مشى فى دروب الصحراء القريبة منه... كان تنقله بين قريته والقاهرة... وتصور أن هذا يكفيه..

- الأمر لا يختلف كثيرًا عن صحراء بلدك..

وحدثه عن رحلاته الكثيرة، وفرق الكشافة التى صاحبها، ومعسكرات الشباب التى أقامها... والصيد فى صحراء الفيوم... ومرسى مطروح... وتوقف فجأة ولم يسترسل بعد أن رأى نظرة التأنيب من زوجته.

- سعيد... مدرس تربية رياضية

- صابر... لغة عربية

وحل صمت ساكن بينهما هزّه فجأة صوت السائق وهو يدعوهم إلى تلبية دعوة البدوى.. فأحس براحة أنقذته من حرج مخز.

***

ولجت المرأة بصغيرها فتحة الخباء... واعتبرت الأمر كأنه نجدة سماوية، فالصغير يحتاج إلى تجهيز رضعة، وهى ضاقت بما تحوى، وتتمنى لو فردت جسمها المفكك.

استقبلتها البدوية بجسدها النحيل وثوبها الزاهى... وهمهمت "يا هلا... يا هلا بالزين" التزمتها فى بشر وتابعت "حبايب إى والله" وراحت تداعب الصغير...

أومأت إلى فتاتين فنهضتا، وحيّتا الزائرة.

طالبتهما بجرش الهيل، وغلى الماء، وإحضار اللبن الصناعى، وإشعال الفرن... نبهتها إلى أن معها طعام الولد، وهو أكل خاص به. أشارت إلى حافة باب محجوب بستارة ذات شراشيب ملونة وعريضة

- هاتى "الوليد" وتريحى.

وتفتح الصندوق، وتخرج منه مناشف صغير. تجلس الولد على أريكة، وتضع فى حجره بسكويتاً بالتمر... ثم شالت يدها زجاجة هبت رائحتها

فملأت الخباء، وطبقًا مسطحًا من الخوص، وكبشت حفانين من التمر، واختارت قنّينة صغيرة تحتفظ فيها بخلطة نافذة من زيت العنبر والصندل، وركنت بجوار مرآة صغيرة مكحلة مرودها صغير ولامع.

... أثار انتباهها وهى ترضع الصغير، الأكلمة الوبرية الجميلة، وأكياس كالحقائب موشاة بخرزات وقواقع ملونة، وعقود بأشكال وأصباغ متداخلة... وأساور بيضاء رفيعة...

وهى تقدم لها القهوة بالتمر قالت فى مودة:

– نغزل الوبر ونبيعه ملابس وأغطية للرأس والصدر

ولوحت البدوية بعقد خطف عين المرأة

– كهرمان صافى جميل

ابتسمت وقالت فى نبرة خفيفة وغمزة عين مكحولة

يبعد الشر ويحمى من الحسد.

***

ظل الزوج - بامتلائه – قائمًا قريبًا من باب الخباء، حتى نبهه البدوى إلى أنها مع أهله فى أمان، فاقتعد حشية تقطعت خيوطها من الأجناب، وفرد ساقيه وتنهد فى نفس طويل وراحت عيناه تتطبقان فى خدر مزاحم.

... كان قد هل على المكان عدد من الشباب قدموا من خيامهم المتناثرة... جاءت جلسة أحدهم بجوار "صابر".. وحين علم أنه موجّه للعمل بمعهد المعلمين بالبلدة الساحلية الصغيرة... حتى استدار كلية إليه وبانت عليه علامات الفرحة وقال فى اندفاعة:

– قبلوا أوراقى به.. إيش تدرس

- لغة عربية..

ونهض سريعًا، قدم الشاهى، وحبات التمر...

- الطريق طويل!!

دفس تمرة ولاكها..

- لنا "عوايل" هناك..

وأخذه الخلاء، وكثبان الرمل، والنخلات الواطئة، والغنمات الشاردة والفتى يحادثه عن الخيمة/ المدرسة، والمدرس المقيم الذى يأتى مع بدء العام ويمضى فى نهايته.. يرحل مع الراحلين أو تمتد إقامته...

- نبحث عن الماء والكلأ.. فإن وجدناه

حططنا الرحال والمعلم معنا..

وتلفت إلى السائق وهو فى طريقه إلى السيارة.. وابتسم..

- الحكومة.. جزاها الله كل خير.. ما قصّرت.

وارتشف "صابر" رشفة طويلة وعينه ترمقه..

- كأنكم رهائن!

جلس الفتى القرفصاء وفرد ذراعيه على ركبتيه وقال فى زهو..

- الصحراء.. بيتنا.. والبدوى حر حرية الصحراء...

كريم إلى أقصى حد.. وقاس إلى أقصى حد...

ونتر جسده وصوّب بصره إلى العربة..

كان السائق قد طوى ملاءته، وجمع أكوابه، وأغلق "الكرتونة" وأحكم غطاء العربة.. أدارها.. ومضى حذرًا تجاه الخيمة.. وقبل أن يصل انفلق الرمل فلقتين وطوى العجلات وأطبق عليها.. نزل، وتساءل فى غضبة عصبية، كيف تجاهل مراوغة الرمل وخداعه!

استدار الفتى... أخبرهم أن العربة غرزت، وأن الرمل احتجزهم فاستسلموا فى تهويمة، ثم سرعان ما ضجوا... طالبين الشاهى... وحجر الجيراك.

***

نظر رجل التعليم إلى ركن قصى. قماش الخيمة كالح وخشن به رقعتان من الجلود.. ملتصق بقائم أجرد معقود. وبجواره حامل عليه "اتريك" منطفئ، وحصيرتان ملمومتان، وحبلان مشدودان .. يتدلى طرفاهما فيلامسان صندوقًا صغيرًا يلمع...

حرك رأسه وعقد حاجبيه ومد كفه كمن يتحقق من شيء. وانفردت أصابعه فى حركة تشى بدهشة جارت على ملامحه، وراحت شفتاه تتقلصان فى استنكار..

وضحك فجأة وهو يشير إلى "برّادة" الغاز.

– كنا نحدد الزمان بالنجوم

ونبرد الماء بالريح

ودسّ أصابعه فى طبق الأرز الواسع، وجمعه بكفه. كومه وضغطه فى باطن الكف حتى بدا كإصبع غليظ.. رفع اليد ودفعه برأس إبهامه إلى الفم.. ظلت يده اليسرى مدلاة على فخذه الأيسر المستريح، وهو ينثر حبيبات الأرز العالقة...

– الآن زاحمتنا الساعات، والأتاريك والبرادات.

علق البدوى المضيف فى نبرة فخر متواضع وهو يمسك بدورق مياه...

– ما تغلى عليك ... حلالك والله!..

امتدت أصابعه إلى قطع اللحم، ونتش نسائر مدهنة وراح يمضغها فى صوت مسموع وحبات الأرز تتفلت من فمه.

أفلح "سعيد" فى تناول طعامه بنفس الطريقة التى رآها، وبذات الجلسة. الساق اليمنى قائمة، واليسرى مضمومة، ومستلقية على الأرض.. وكفه تقبض وتضع أصابع الأرز. وعيناه تتابعان حركة الأيدى.

عجز صابر عن الأكل. فاستخدم ملعقة بلاستيكية، وظل ينكت بها الطبق، ويلتهم الأرز. كان عاجزًا عن استخلاص نسائر اللحم، فامتدت الأصابع واقتطعت قطعًا صغيرة، ووضعتها أمامه..

سال الدهن على الأفواه وكسى الأيدى، ولم يجلُه – فيما بعد – سوى الفرك بالرمل قبل الغسيل..

... مسك البدوى ببراد الشاهى، وحمل أحد الفتية صينية عليها أكواب صغيرة... وراحا يدوران على الحاضرين... تناثرت المقاعد، ومدوا سيقانهم واتكئوا.

– يا رجّال..

التفت صاحب العقال الوحيد، فابتسموا.. ورقرقت أصواتهم.

رفع رجل التعليم إبهامه ومس به شفتيه، ففز ناهضًا وبدأ يعد الأدخنة. رمقه فى زهو وهو يلتقط "الدخن" ويضع الجمرات، ويكبس الحجر، ويطمئن على مسرى التنفس، ويضبط مستوى المياه..

ومال إلى "سعيد" هامسًا

– ليس كالبدوى رجل..

أخرج بسمة علقت بشفتيه وهو يعلق

- ... وأنت... بدوى!

فرك أصابعه، ثم حكها فى الكليم ودسها فى حجره.

- من بلدة ساحلية.. أرضها سبخة، وأهلها أجناس شتى، لكن الصحراء تطويها.. فيدهمنا البدو كثيرًا...

توقف قليلاً وهو يتعجل الدخان

- وأنت من "وين" ؟

رد سعيد وعيناه ترقدان على حافة الأفق البعيد

- ساحلى.. من الإسكندرية

- أوه ... زين والله...

تحدث عن محطات الطريق، وعن الخيام التى هى محطة انتظار، والبدو الذين تغيرت عاداتهم، وأصبحوا ينتظرون المسافرين، وخبثهم فى تدبير الأغراض اللازمة للاستضافة مدفوعة الثمن... لن تعدم فى الصحراء، التوقف لأسباب كثيرة..

ويضغط على ركبته فى قوة

- قليلة هى اللحظات التى تتحول فيها الخيمة إلى مقهى تتردد فيها الحكايات... لكنها لحظات ممتعة.

ونهض وصوته يعلو:

- كلّ على راحته..

جلس خارج الخيمة، واقتعد الرمل واتكأ على فخذه.. التقط المبسم وبدأ الدخان يتصاعد. علا صدره، وهو يكتم سعلة رجته. لاح جلده غامقًا، وغترته منسدلة على الكتفين فكشفت عن طاقية بيضاء موشّاة بخيوط من القصب الأصفر كأنها أوراق خوص باهتة.. وفودين غزاهما الشيب.

وأشار إلى "صابر" فاقترب... زاحمه الدخان ورائحة العرق فتقلص وجهه، وأخفى امتعاضه.. رمقه بركن عينه وأهمل ما رأى.

كانت الشمس ترسل ضوءها الساخن، ومن بعيد.. خطفت عيناه طيورًا سوداء تحوّم ثم تنقض.

لوح بذراعه.. والتقط حجرًا ورمى به.

حرك رأسه، وراحت شفتاه تنفردان وتنطبقان.. كالتمتمة، وبدا كأنما يحادث نفسه.. يرمقه والمبسم على حافة الفم، والصوت هسيس، وكأنه يحرص أن يصله الحديث بالكاد، فأمال "صابر" رأسه، وقلبه لا يزال متوجسًا.

... تحدث عن الجوارح وهى تنقض، والذئاب وهى تترصد، والنسور فى قنن الجبال وهى تبنى الأعشاش وتتعالى، والبغاث وهو يتدافع على الجيف، والحملان وهى تروغ.. والبشر حين يضيعون.. والرياح حين تعصف فتقتلعك بخيامك، والرجال وهم يقفون علىَ رأسك يبغون "حلالك" .. أو يطلبون ثارات.

ومد يده والتقط حجرًا كبس به الدخان.. ورنا إليه فى إمعان كأنما يقصده..

... الذين عاشوا ذلك كله ما كانوا يستطيعون الحياة دون المواجهة... والمغامرة... فأنت لا تقوى على إزاحة شيء من أجل آخر... الكل فى واحد... يتعايشون كأنهم عائلة... منهم المتمرد، والقناص، ومنهم الوديع... والمراوغ، الحر، والعبد. كل ما فى الصحراء ينادى بعضه بعضًا... ويحذر بعضه من بعض.

توهج اللهب، وتطايرت ومضات متوهجة، فى فرقعة متوالية سرعان ما انطفأت... ذكرته بلهو الصغار فى الأعياد، فانقبض وجهه وترجرجت عيناه.

رمقه وأهمله وشد نفسًا طويلاً وهو يتابع حديثًا صاخبًا بين "الشباب". واستدار بوجهه كله إليه. للمرة الأولى يتملى ملامح الوجه فى استدارته المفاجئة، ويصطاد حنوًا شفيفًا يطل من العين ويسرى فى رعشة خفيفة لتشمل الوجه.

أخذت الرمال أكبادًا دافئة من الكبار والصغار.. ولم تقف الحياة.. يبحثون عن نقطة الماء فإن وجدوها دقوا الخيام.. أو يداومون الرحيل..

قبض على فنجان صغير وانسكب سرسوب رفيع من الدلة وفاحت رائحة البن والهيل.. تذوق وابتسم..

خفقت عيناه وهو يطالعه، وتساءل: فيم كل هذا الحديث عن الصحراء ورجالها؟ .. ولماذا آثره بهذه الجلسة التى تكشف عن حس دافئ!.

ولأول مرة يراه محدقًا بالكامل فى وجهه كله كأنه يتفحصه..

- الحياة شديدة القسوة وجافة.

والإبقاء عليها هدف مقيم.

وشغفه الحنين، وأخذه إلى "ربعه" البعيد فى كنف الخضرة، والماء، والسّحن المتعبة والأهل المكدودين.

وانتظر أن يتم عبارته، أبقى على هدوئه، وظل واعيًا لالتماعة عينه..

- نقيم الرحلات كثيرًا إليها..

أن تكون طليقًا مع الفضاء الرحب متعة كبيرة.

وابتسم فى صفاء البدوى الساكن فى خيمته..

- من لا يواجه الصعب... لا ينعم بالسهل.

***

... تنصت إليه، يستميلك حديثه، عباراته تشى بحكمة "من لا يعرف الصعب لا ينعم بالسهل"... وأنت تنظر إليه أثناء كلامه تدرك أنه غير ساذج أو عييّ... لديه قدر من التأمل، وحسن الإدراك، ولعل فراسته جعلته يستفيض، ويؤثرك بحديثه عن الصحراء وقسوتها. وربما فضحتك حالتك، فلم يغضب كما غضبت البدينة، بل حاول أن يقترب منك، ويتعرف عليك، وأنت المتوجس دائمًا.. تأخذك الحالة فتبتعد. يظنونك عزوفًا عنهم، أو متعاليًا عليهم... مع أنك تحرص على تجنّب مثل هذه المواقف، وتسعى إلى تصحيح ما يأخذونه عليك.. وتعجز كثيرًا.. وأنت تعى ذلك... فالحاجز يقف بينك وبينهم، يعكر المسافة، ويؤلب الشعور، مع أنك تتمنى – فى الحقيقة – لو ذبت فيهم ووزّعت عليهم ما تنوء به..

ما الذى أخذك منهم وجعلك واحدًا!!

... حين جاءتك خالتك ظهرًا، كنت تلهو على سطح الدار، وتلعب مع ولدها الصغير. كنت لا تزال فى البدء، ولم تدخل مدرسة بعد، وأمك الجميلة، موردة الخدود، خضراء العين ترقد مريضة... ولما كنت تدخل عليها، وتقترب منها يتلألأ وجهها كالبدر فى طلعته، وتبتعد عنه الغمامة المعتمة...

وتأخذك إلى صدرها، تضغط عليك، تود لو تدخلك بطنها وتغلق عليك، ثم تخيط جلدها. تمد بصرك إلى والدك لعله يخلصك، ويحررك من دفئها الساخن. وحين يمد يده ويأخذك تسبل عينيها، وتدير رأسها وتبكى..

كان أنفها أحمر، وخدها أحمر، وعيناها حمراوان، وشفتاها تتقلصان فى رجفة من يكتم ألمًا شديدًا، وحزنًا ممتدًا.

فى الليل تألمت كثيرا.. جاءها "المداوى" سريعًا. غسل يديه بالصابون حتى بدت الرغوة على كفيه كالعجين المختمر، وامسك بزجاجة اليزول، ثم غلى الحقنة، قبل أن يتهيأ للعمل... وهى مستسلمة تئن، وكان أنينها ينطلق وينكتم.

رمق أباك فأخرجك.. وبقى معه.

كانت خالتك تشعل النار، وتضع القدر على الكانون، وتستحث الماء أن يسخن، وتلتقط طرف "طرحتها" وتمسح الدمع، وأنت تلازمها كلما تحركت... حتى غار ولدها الصغير.. فطردتكما معًا إلى الخارج وأغلقت الباب.. ثم سمعتها تشهق فى نهنهة عنيفة كالصراخ.. وفتحت الباب واحتضنتك ...

كان وجهك كله فى بطنها، وكانت تضغطك حتى كدت تختنق... وأخذتك من يدك وأجلستك على الكنبة الخشبية فى الردهة الواسعة وقالت.. ووجهها يتقلص، ومجرى الدمع ينهل..

- ادع لأمك.. الله يسمع دعاء الصغار

حدقت فيها، وهومت عيناك، وأتاك الدمع دون أن تنطق، وغاص وجهك فى بطنها وهى تضغط عليك، لم تفتك الرجفة التى شملتها.. فشملتك، فازدادت ضغطًا،.. وخلعتك فجأة وذراعاها يحوطانك.. وتملت فى وجهك وعيناها واقفتان، ومنفرجتان فى تحديقة أخافتك..

وجذبتك من يدك، وأدخلتك عليها..

روّعتك الوجوه المنقبضة، والملابس السوداء، والنهنهات المكتومة، وخالتك تكشف عن وجهها.. أبيض جميل زاحمته صفرة باهتة، وحط عليه سكون وادع.. وداعتها فى الصلاة. الرموش مسبلة كأنها فى تعسيلة العصارى، فحجبت عنك خضرة "النن" الغامق..

ربتت خالتك على كتفك وطالبتك أن تميل عليها، وتقبلها.. وحين ملت، ولامست شفتاك وجهها، شعرت ببرودة فى الجلد لم تتعودها. فصرخت باكيا، وفردت ذراعيك تحتويها.. وترجها كى تفيق من تعسيلتها..

نهنهت النسوة، وامتدت الأيادى إليك تسحبك وتحتضنك، حتى كدن يتصارعن عليك..

.... ظللت أيامًا تسأل عنها.. وأنت مشتت بين الأهل.. إلى أن علمت أنها سافرت إلى ربها فى سفرة طويلة... فانطويت على نفسك...

***

.. شعر بوخزة فانتبه...

رآه محدقًا فيه، وغارسًا فم المبسم فى صدره.. فجفل.

مد إليه يده بمنديل ورقى وأشار إلى وجهه. امتص المنديل بلولة العينين، وظل صامتًا.

هبت ريح صاهدة، ولاحت بعض السحالى تخب رافعة ذيولها... وحين رمى بالحجر، توقفت، رفعت رءوسها الدقيقة... وانتظرت.. ثم مضت تخب..

ركن المبسم وتوجه إليه بجسده كله.

- حالتك لا تعجبنى..

احتار فى الرد عليه فأسرع قائلا

- الأمر جديد...

يدرك أن داخله يمور بهواجس، وأن خوفه عالق بوجهه، وعجزه عن إخفاء ما به واضح .. فى بلولة العين.. احتد ناصحًا كالمغيظ.

- يا رجّال.. أنت ستعيش مع "أوادم"

بشر.. مثلك.. والله لن يأكلوك!..

ما الذى يمكن أن يقوله؟ ومن ينقذه من حرجه؟ وهل يكشف نفسه.. ويبوح له.. بأنه ظل زمانًا طويلاً لا يعرف سوى بلدته، ومدينته..

- كلهم أخوة.. لكن الأمر جديد على..

- إن ظللت هكذا.. ستجن..

- سأتعود.. كل جديد يبلى بالعادة.

وابتسم وهو يرنو إليه فى صدق

- يكفينى أن أعمل معك..

هز رأسه.. وراح يتحدث عن عمله فى الشمال البعيد، حيث البرد، والعادة المغايرة، والبرد فى الشتاء – وهو الذى تعود على الحرارة ولزوجة الهواء – والغربة التى شعر بها بعد مغادرته للمكان.. "غربة المكان قاسية، وكان لابد أن أقترب من الناس.. أهل البلد..".. والناس حين يُألفون يتوارى الإحساس بالوحدة والغربة..

وأدهشه صوته الذى علا فجأة وهو يقول:

- افتقاد الألفة أقسى من غربة المكان

ولمعت عيناه

- خذها نصيحة..

سيتحالف عليك الرمل، والخلاء، والوقت الطويل.. وافتقاد الصحبة...

وعليك أن تواجه ذلك كله.. وإلا..

توقف قليلاً وهو يرمقه، ويلوّح فى الآن نفسه إلى الرجال الذين بدأوا يسترخون فى أماكنهم

- كيف تقوم بواجبك.. وأنت على هذه الحالة..

وعاوده التوجس فارتبك ولاذ بالصمت...

وأطل السائق ويده تقبض على الجاروف.. أومأ إلى الشباب فنهضوا.. وراحوا يخلصون "كفرات" العربة من الرمال.. إيذانًا بالرحيل.

***

.. يوم أن وصل إلى المكان قرّ فى داخله أنه مفارقه، وأنه هاجره فى التو.. لم يدُر فى خلده أن يعيش حياة الهاجرة، ويتلظى بنار صحرائها، وينبذ فى فيافى ناتئة التلال، سبخة الرمال، شحيحة الشجر.. ويحتويه بيت كحوش المقابر.

واجهته البلدة بمبانيها القديمة الواطئة وسككها الضيقة. ميناء قديم مهجور على شاطئ البحر الأحمر.. لا يدل عليه إلا لسان متهدم وممتد قليلاً فى المياه. يهربون إليه للترويح، أو لصيد السمك..

... البيوت متشابهة، ومن دور واحد، تميزها أحواش واسعة تطل عليها حجرات متناثرة... وبجُدرها المطلة على الدروب نوافذ ضيقة وصغيرة، بها شرائح من الخشب، ومخرّمات منمنمة تسمح للعيون أن ترمق الغادى أو الرائح.

أدهشته البيوت المجدولة من الجريد، وأغصان الأشجار، وأعواد الغاب وألياف النخيل.. وتذكر ما شاهده من بيوت الأفارقة ذات القباب الشجرية... صنعتها مخدومة، وطرازها البنائى يدهش الخيال بجماله وبساطته.. نوافذها

مطرزة بنباتات السمّر الملون، وفتحاتها الضيقة التى تشبه العيون... مسيّجة بلون كالعقيق..

لم يبخل عليها أصحابها فراحوا يوفرون للواجهة، والأبواب، والجدر جماليات تتخذ من البيئة مفردات لها.. لكنهم يتحاكون عن المنفعة التى تعود عليهم من تهوية المكان وتدوير الهواء.

ثمة مبان متناثرة من دور واحد، مشيدة بالطوب الأسمنتى أو الحجارة، وقليل منها بنى بالقرميد الأحمر.. يكتريها المتعاقدون وتشغلها المصالح الحكومية... ويهرب منها المواطنون لاكتنازها الحرارة والرطوبة... أخذه المكان..

فى نهاية الشارع تبدو البرحة الواسعة كسوق صغيرة...

... وقف يرسل عينيه لعل أحدًا يلحظه فيسعفه.

رأى اللقاء الحميم بين "سعيد" وصديقه.. وبهجة الصحبة تطل من العيون... لم تكد البدينة تمد يدها حتى رجها البكاء، فرمت بشالها على الوجه، ودفعت بالولد إلى أبيه.. فالتقط الحقيبة وسار بهم حتى حنية جانبية، ثم اعتلوا درجًا وغابوا عن الأنظار.

توقع أن يقترب منه ويدعوه.. لم يفعل... واكتفى بالتحية ومرق.. وظل منتظرًا... حتى أخذه السائق من يده.. وقال ضاحكًا

- لا زلتُ وصيًا عليك..

وسارا حتى وقفا أمام محل البقالة..

... المدخل واطئ، لكنه متسع من الداخل، ملئ بالأرفف، ومكتظ بأغراض كثيرة بدءً من الطعام والشراب ولعب الصغار.. وحتى الأثاث..

أحنى السائق رأسه ونظر إلى الداخل فضحك "الغامدى".. كان الاسم مكتوبًا على واجهة المحل.

دعاه إلى الدخول، فأشار إلى "صابر" وابتسم

- معلم.. جديد.. تركوه المصاروة

نهض سريعًا.. وتهلل ومد يده قائلاً

- يا هلا.. كلنا أهله..

فاضت نفسه بشجن حقيقي، وأسره الدفء الذى يخرج من العبارة المجاملة... فيلمس قلبه

لمح السائق رجفة مباغتة ونداوة فى العين فبادر يقول..

- عايض الغامدى.. الوكيل

قبض عايض على يده، وحياه فى ود صريح،... وقدم لهما زجاجتى كولا، وقطعتين من الشيكولاتة ماركة "مارس".

ومياه الكولا تنسال فى رشفات مبتردة، والسيجارة تنسل من "الباكت"... نطق فى تمهل واستمالة

- وصانى عليه منصور... ويبغى مسكن.

أشار إلى عينيه فأسرع داعيًا

- سلمت عينيك

افتر ثغره فلاحت صفرة باهتة.

- لا تحمل همًا.

أخرج دفترًا من درج الطاولة، وفرّ الأوراق وتوقف عند حرف الميم... وسجل الاسم من واقع "جواز السفر" محمد صابر محمد، وحين علم أنه

موجّه إلى معهد المعلمين، تفرس فيه وأمعن النظر، شمله بعينه، وأخبره أنه الوكيل وأنهم يتوقعون مجيئه من شهر... والعمل ينتظره.

ومد يده إليه بورقة مالية فئة مئة ريال، وقبل ان يأخذها منه...... أخبره أن الرواتب تتأخر كثيرًا.. و..

- نقوم بالواجب... إذا جاءنا الراتب أخذنا حقنا.

وطلب من السائق أن يذهب معه إلى البيت.

- اطمئن.. ستصلك الأغراض..

وحين لاحظ دهشته.. ابتسم في ود.. لا تتعجب.. نحن نبيع لك... بالأجل.

***

دق الباب فامتدت اليد وسحبت الترباس..

انزوى خلفه وهو يلقى التحية فى صخب.

- هلا مختار غساك طيب..

صافحه وأدار ظهره عائدًا.. وهو يردد

- استعد لجولة جديدة

فرد ذراعيه على المدخل

- ليس قبل أن ترى

استدار مختار برأسه وظل على انحناءته.. وبدا كأنه ينتظر

- ساكن جديد..

وقبض بيده عليه.. وشده.. فدخل..

... كان البيت واطئًا ومن دور واحد..

يتوسط المدخل جدار البيت الأمامى، وفى الجانب الأيمن مدخل آخر ضيق.. الفناء واسع ومفتوح على السماء.

الأرض مغطاة بطبقة من الأسمنت تآكلت وأحدثت فجوات صغيرة. أتاحت للنمل مأوى آمنًا... على اليسار حجرة بدت متسعة من امتداد الحائط الذى كُشط ملاطه فلاح القرميد باهتًا. فى مواجهة المدخل مباشرة، فى الطرف الآخر من البيت حجرة صغيرة بابها مسيج بالسلك.. وفى الركن المواجه حجرة صغيرة لتجهيز الطعام، بها عدة أرفف عليها أطباق وسكاكين، وطاولة فوقها موقد مسطح، وأنبوبة غاز زرقاء كالحة.

وثمة حمام بلدى صغير بمدخل واطئ، ورشاش ماء قائمته مفكوكة ومشبوكة بحبل فى غصن فالت من أعمدة السقف.

وبدا العنجريب الكالح المجدول من الليف شاهدا على زمن قديم. والحشيتان الصغيرتان مرميتان فى إهمال.. وكرتونتان معدتان كمقعدين... وحصيرة تقصدت أطرافها ملمومة ومركونة على الحائط.

شعر بانقباض وهو يرى البيت كأحواش الموتى، والفناء الواسع لا تنقصه إلا نباتات الصبار.

التقط مختار السيجارة، فانفرجت شفتاه قليلا وارتسمت الدهشة على ملامحه وهو يتابعه مع السائق فى جولته... ولاحت رأسه مدلاة.

– يا أهلاً..

متى الوصول ؟

زعق السائق فى صخب وكأنه فى موقف مبهج..

- الحين..

جاء استقباله باردًا.. لم يشعره بحرارة، ولم يصله دفء المواطنة.. توهمه قابضًا على يده، متأملاً وجهه، جاذبه إلى حضنه، ماسحًا – ولو ببسمة مفتعلة – إرهاق السفرة الطويلة.

لم يفعل.. ظل حسه ساكنًا.. محايدًا..

ربما حكمته العادة، ومداومة الزائرين..

جلسا على العنجريب.. واقتعد السائق كرتونة.. وراح يتكلم عن "صابر" وصداقته لمنصور.. و"مختار" يضع ساقًا على أخرى ويمعن النظر إلى أسفل..

- هو أمانة فى عنقى

ووخز مختار ضاحكًا

- لن يتحرر منى إلا بسكنه..

خشى أن يطول صمته، ويتولد الملل.. فانبرى قائلاً

- محمد صابر محمد... موجّه للعمل بمعهد المعلمين..

أدار وجهه كله، فبدا مغضنًا..

التقط السيجارة من "الباكت" وأشعلها، وقذف بالعلبة إلى السائق فجذب واحدة وأخرج قداحته...

نهض "مختار" صائحًا فى حركة استعراضية..

- أنت بين أهلك وناسك..

ومضى ناحية الغرفة الصغيرة..

ذكّره السائق بأن الأفضل له ألا ينفرد بمسكن.. فالوحدة مؤلمة، والعزلة تتعب العقل، وتركب الخيال..

خرج من غرفته وبيده طبق ممتلئ بالمكسرات وقطع من الحلوى.. وبالأخرى... مروحة من الخوص.. قدم الطبق إليه، وكبش حفنة ففرد السائق كفيه.. وراح يلوك الحلوى.. ثم فز قائمًا وهو يرمقه فى قوة واضعًا يده على كتفه فى ضغطة حانية

- والآن.. دعنى أمض إلى الأهل.

أشار مختار إلى حجرته وهو يحادثه فى خفوت.

- أحب أن أنفرد بنفسى لأسباب فى النوم..

وقاده إلى الحجرة الواسعة..

واجهه سرير بعمدان حديدية... تحيطه كّلة بيضاء معتمة، قوائمه مغموسة فى علب من الصفيح الممتلئ بالماء..

.. أبدى خوفًا مدهوشًا.. فقال:

- يقلقنا الناموس.. والعقارب..

الدولاب الصغير أكبر قليلاً من الكوميدينو.. والجدار السميك عند فتحة النافذة يسمح بفراغ يمكن استغلاله.

- سيرسل الغامدى أغراضك.. الغرفة واسعة تكفى ثلاثة.. خذ راحتك.

رمى بجسده على السرير، فرد الكلة.. وأسلم نفسه لراحة مختلسة.

***

أسير فوق تل معشب، تناثرت فوقه شجيرات صغيرة، تتبث فى غصونها، وتزاحم أوراقها زنابق بيضاء، وصفراء.. أرانى أخب فوق كلأ معشوشب كالنخيل الرابى، والفراشات تتطاير قافزة، صاعدة، هابطة.. ضاحكة.. ترسل رفرفة كالنغم فتروح تحف بالمكان. يضج الشجر. ويرقص

الورق، وينساب صوت كخرير الماء حين يصافحه النسيم، فتضحك الوجوه وهى تكشف خضرتها المسدلة... وتلوح خلف الزنابق كهيئة النجوم الساهرة.

يتقاطر الماء من الفضاء الرحب قطرة، قطرة. تتواصل القطرات كأن بينها خيطًا من الفضة، تمتصه الزنبقة فترتعش. أحس رعشتها، أنفتح على أرجائى مثلما يتفتق الورق من الزنبقة.. الله ما أجمله.. كيف جاء... وارتوى!! .. من أتى به! ومن أخرجه من فتحة الورق!! تسرب من عصارة الساق حتى اخترق القلب.. وأطلّ.. باهرًا.

ظللتُ أبحث عنك، وأنت تدفع الزنابق، تطل عن كثب، كأنك تبحث عنى وأنا الذى أبحث عنك. تحوطنى من كل جانب. كأنك التعويذة.. أقترب، وأُمعن النظر، أكاد لا أصدق.. ما الذى جعلك مطروحًا فى الكون!!

أشعلت الرغبة، وأججت الهوى.. ما بالك تتجلى حتى تكاد تتخفى!!

عين هذه الزنبقة عينك، شعرك تناثر فى الوبر الناعم.. فدثر التّويج وأدفأه، وحاجباك تبدّيا فى انحناءات الشجر وعصارات اللون.. أخذت الخدود حمرتك، وتجسد الفم وردتين حمراوين، وتقاسم الزنبق ثغرك.. فتألق..

أروح ملهوفًا عليك، أسعى بين الزنابق، أراك موزعًا ومنثورًا، ضعت بينهما، وتشتت جمالك.. عدوتُ رامحًا لأجمعك، استعصيت، رأيتك مهدرًا دمك، وأنا الذى حسبتك خالصًا لى..

ظللتُ أدهس بقدمى الكلأ، وأنت تراودنى، تتخلى عنى، وتقصدنى.. ما الذى جعلك تفر منى!

تتمدد القطرات، وينهل المطر. يحجزك الماء، الماء الذى يتمدد حتى كاد يغرقك.. وأنا الذى أجهل العوم أنقذك..

وأنت تستكن فى الورق ويحصرك.. ويبعدك.. وأنا الذى أجهل العوم.. أنقذك.. والماء يجذبنى.. ويجذبنى.. ويجذبنى.. وأنا الذى أجهل.. أجهل...

وتوقف التنفس، فهب فجأة دافعًا بيديه كتل الماء قبل أن تتسرب إليه، وتأخذه.. وخبطات العصا على النافذة فى ليل ساكن كقرع الطبول تتفلت وتخرق مسمعه.. والصوت خشن ومبحوح، يدعو النائمين أن يهبوا لصلاة الفجر فى المسجد الكبير.

علا صوته مغيظًا

- أهذا وقته!!

وجذب الوسادة ووضعها على أذنه فى ضغطة قوية.. لكن "صلاح" كان قد نهض عن سريره، ودس قدميه فى مداسه واتجه إلى الحمام..

... شعر بهمود حقيقى، وآثار حلمه المائى يرهقه ويعطل عقله ويربكه، وهذا الماء الذى كاد أن يغرقه ظل يستدعى موجه، ويتأمل الوجه الذى يفرش ملامحه ويصطاد الزنابق.

وزميله فى الغرفة ينسى رجاءه، فلم يخفف من حركته ولم يراع أضغاث الأحلام التى تكبده كثيرًا من الجهد وتحرمه متعة النوم.

.. وصله حوار آت من بعيد.

كان الآمر بالمعروف، الموكل بتنبيه الناس إلى مواعيد الصلاة، والذى يمر على المحلات آمرًا بغلقها، ويقتاد المتخلفين إلى القاضى لينفذ الحكم.. الجلد أو الترحيل - لم ير مرة واحدة مواطنا جلد من أجل الصلاة. كانت الخمر هى السبب - يرفع صوته مرددًا..اسعوا إلى ذكر الله.. وذروا النوم...

ووصله صوته وهو ينبه "صلاح" أن ينبه زميله فى السكن أن ينتظم فى الصلاة بالمساجد... ويدع الكسل.. ويوقع بالحضور.

"و الله لو لا البذورة لوقفتُه"!

حين دخل وجده جالسًا يشغله الحديث الذى سمعه.

- سمعت!

- لم يبق إلا أن أوقع فى الدفتر على عتبة الجامع.

أنهى صلاح ارتداء ملابسه. استحثه أن يقوم معه، وأن يغلق صفحة هذا الرجل الذى سيطارده كلما عنّ له أن يضايقه..

- دعنى.. سأصليه قضاءً.

فى الصباح وآثار النوم لم تذهب بعد، أفهمه "مختار" أن الآمر.. ولم يكمل..

كانت سعلة متقطعة وممتدة ترجه، وتحنى جزعه، وتشد عروق وجهه كأنما تخنقه.. تمهل وهو ينظر إليه..

- يقول .. انه يصبر عليك مراعاة لى..

لا يذكر أنه صلى بالمسجد جماعة إلا قليلاً.. ولم يعلم أنه يؤدى فريضة الفجر بالجامع.. وأن صلاح وحده هو الذى يداوم عليها.. مع انه يتهاون كثيرًا فى بقية الصلوات.. ويردد لمختار كلما اجتمعوا فى وسط الحوش لشرب الشاى ولعب النرد..

- سيشهدون أننى أؤم المساجد فجرًا..

ويخبط بالحجر صائحًا فى ضجة

- ولو..

في المعهد ناوشه الغامدى ضاحكًا

- أقلقك الرجّال

لم يفهم أى رجّال يقصد، فقبض على اللحية، ودق الهواء بقلمه.

- حين يأتى إليك فجرا، أزهم عليه بالدخول

أجاب مندهشًا وعاملُ الشاى يناوله كوبًا صغيرًا مزينًا..

- وماذا لو دخل!

توقف العامل بغتة للخوف الذى وشى به الكلام

- لن يدخل

وأشار إلى العامل .. فانسحب مغيظًا..

استدار بمقعده رانيًا إليه

- سيعلم، أنك تعلم أنه يقبل منك أن تهاديه.

لم يتعجب كثيرًا فالشبكة التى ينسجها .... متقنة الصنع، لكن ثقوبها تتسع. ومع أنه لم ير منه أذى ألا أن إشاعة الخوف عادة تلازمهم..

وهو يجر الترباس بجرسه الزاعق واجه "مختار" متسائلاً قبل أن يدخل من فتحة الباب

- أتهادى الآمر؟

نحاه مبتسمًا ولم يعلق.

***

كان قد أنهى للتلاميذ أنه سيصطحبهم إلى عدد من المدارس الابتدائية مرة كل أسبوع لمشاهدة المدرسين أثناء إلقاء الدروس، وعليهم أن يدونوا

ملاحظتهم على طريقة الأداء وتوصيل المعلومة ومدى استجابة التلاميذ أثناء الشرح، والتى تتضح من المناقشة، وإلقاء الأسئلة وانضباط الحركة، وعليهم أن يقارنوا ما يدرسونه – نظريًا– بما يرونه –عمليًا– ويسجلوا وجهات النظر التعليمية والتربوية اللازمة فى هذه المواقف.

.... ذكرته المدارس الابتدائية التى زارها بمدرسته الأولية فى أواخر الأربعينات.. مدارس تفتقد المواصفات الفنية، والتربوية، مبان قديمة متهالكة.. وأغلبها مؤجر...

أدهشه أن يرى "هناجر" الصاج ذات القوائم الحديدية كفصول إضافية يتلقى فيها الصغار دروسهم... وهى تتحول إلى قطعة من اللهب فى الصيف، كما أقلقته رائحة تهب من خلف المبنى...

.... يغريه دائما التعرف على الحمامات. يعتبرها المرآة الحقيقية لنظافة المكان.. الحمامات جماعية، تنشع بالرطوبة، والمياه تندفع رفيعة من ثقوب المواسير الصدئة والرائحة تزكم الأنف، والباعوض يترصد من يغامر بالدخول، وخزانات المياه مكشوفة ومُعشبة...

جأر الجميع بالشكوى... وأعلنوا فى وضوح – المكان لا يصلح – وإدارة التعليم فى المبنى الجديد المُنشأ فى البدء مدرسة... تتلقى الطلبات وتعرضها مشفوعة بملاحظة هامة "ليس ثمة مساحات بالبلدة تصلح لإنشاء مدارس جديدة" وتليها ملاحظة أخرى "الترميم يحل المشكلة".

... الأمر نفسه فى المعهد الذى يعمل فيه... الحمامات مشكلة يومية تحتاج إلى ترميم متواصل... وعمالة تقوم بالنظافة... مثل هذه الأعمال لا

يقبل عليها المواطنون ويلحقونها بالأجانب... ومنهم اليمنيون الذين يغص الجنوب بهم...

ذات يوم التقى رجل التعليم بالعاملين بالمعهد، أثنى على الجهود المبذولة، وطالب بتحسين الخدمة التعليمية وبذل أقصى ما يمكن فعله لإظهار المعهد فى ثوب جميل... نظافة، ونشاطًا، ولوحات وصحفًا... وطالب باختيار عدد من الطلاب النجباء لتدريبهم على الخطابة، وإلقاء الشعر، والمناظرة، وتهيئة نشطاء فى الألعاب الرياضية والكشافة، بمناسبة زيارة الأمير للمنطقة.

.... زيارة الأمير تعد عيدًا تعمل الأجهزة كلها لإنجاحها واستمطار رضى الأمير عليهم.

كان "سعيد" فى صحبة رجل التعليم، فمنذ أن وصل أبدى نشاطًا ملحوظًا فى تخصصه. كون فرقًا كشفية بالمدارس وأقام معسكرًا فى الصحراء، وآخر فى قرية نائية.. وتحدث الأهالى عنه باحترام وتقدير.. وراح التلاميذ يتحاكون عما فعلوه مع الموجه "سعيد.." حتى أصبح قريبًا من رجال الإدارة التعليمية.

... لم تفته ابتسامته.

انتهز الانشغال بتناول الشاى وتقدم. قبض على يده وعاتبه.

- لم نرك من مدة

الهانم تسأل عنك.

..... كانوا قد اجتمعوا فى عيد ميلاد ابنه الصغير وامتد الحديث، وتعالت نغمات الموسيقى، وتجلى صوت أم كلثوم فأوجع القلوب، وذكّرهم

بالأحبة والأهل... والوطن. وانكفأ كل منهم على نفسه يلعق آلام الغربة ويندب حظه.. والظروف التى أجبرته على الخروج، وظلمة النكسة التى تأخذ الأرواح معها.

ظل مسندًا رأسه على ساعديه حتى خالوه غفى، أو فقد وعيه...وأدركت الهانم أنها قست عليه، وأنه يحتاج إلى نوع من الرعاية وأنها أبدًا لم تقصد السخرية منه أثناء السفر.

.... اقترب من رجل التعليم... كان يود أن يحادثه عن المدارس التى تعوق نجاح العملية التعليمية.. لكن الغامدى كان قد انتحى به.

- وافقتم على المكان..

تتعدد أنشطة الغامدى، بيوته المؤجرة - وحدها - تدر عليه دخلاً كبيرًا.. ووكالته لعدد غير قليل من المتعاقدين تضفى عليه هيبة، وتجعلهم فى قبضته.. ومع أن احدًا لم يعلم أنه أساء التصرف معهم.. إلا أنه استثمر ذلك جيدًا... حتى بات محور اهتمام الجميع...

- تدرى.. اللجنة ترى أن البيت رغم غرفه الكثيرة يحتاج إلى تعديلات.. وترميمات...

مس أنفه بإصبعه:- سم.. كل شئ متاح.. وقّع بس...

تمتم رجل التعليم - عيّن خير

وقبل أن يمضى مال الغامدى وهمس...

- وبيت الأمر بالمعروف! والصلاة..

- مدارس البنات... فى أماكن معزولة... وبيته بارز... ومجروح..

- طال عمرك.. هو مستعد لنقله أو بناء سور حوله..

ضحك فى قهقهة علت حتى توجهت العيون إليه وانسحب وبسمته معلقة بشفتيه

- الآمر.. لا يشبع...

***

الدرب المتعرج والمترب من معهدك إلى بيتك، يحتويك ويأخذك إلى متاهة كلما دخلت فيها خرجت لتجد نفسك محاصرًا بحفر وأخاديد.. تصطاد عيناك أولادًا يمشون على الحافة، "ويزهمون" عليك بلهجتك المصرية، ويلوحون.

وترفع يدك محييًا، فيطويهم الطريق ويغيبون. يتكالب عليك الرمل، والزواحف، والحفر، ودوائر الملح البيضاء فى الأرض السبخة... والمسافة تدخل فيك، تمزقك، واللهب يهب وتعجز عن اتقاء رشة الشمس... تلوم نفسك أنك لم تستخدم المظلة، أو تلبس الطاقية البيضاء المخرمة – وتكتفى بنظارتك البنّية، ومنديلك الملفوف حول رقبتك.

وتصبح العودة إلى البيت ملاذك من وقدة الطريق، وخلوّه من المارة.. لا يمشى فى هذا الوقت إلا رجل أنهى دوامه كاملاً، وافتقد وسيلة للعودة – لكنك فى الحقيقة تخشى عودتك.. تلتف حول نفسك تلعق الألم.. والجفاف يصحبك، وروحك تذوى..

يرين على خيالك كلس يحبطه، يسيّرك فى مسار واحد، حتى عجزت عن تجسيد وهمك... وجهك بشعره المنسدل لم تعد قادرًا على اصطياده..

ولم يطاوعك الهجير وهو يسعى إليك فغنيك فى لظاه، حتى فر منك وتركك للوجوه المغضنة.. تهاوى كل تهويم، وانطمس الشعر، وبات "صلاح" يضحك منك، والضحكة تستعصى عليك، وهو يحكى عن صبواته، وامرأته التى يستدعيها كل ليلة قبل أن تغنيه الكلة بثقوبها الضيقة.

... كان فى البدء يتخفى وهو يقرأ خطابها إليه، ويحرص على حجب عواطفه، وتتعجب من إقبال صلاح بكل انفعالاته على الورقة الممهورة بخطها، ولماذا كل هذا الوله من زوج قديم... الشوق، وضغطة العين، والبسمة الرقيقة الحانية والتنهيدة العميقة وإسبالة العين.. مصاحبات تراها وهو يكاد يدخل إلى الأسطر ويتدثر بها.

الله ما أجمل الحب!! مع التعود.. لم يعد يتخفى، ولم يكتم ما يقرأه إلا قليلاً... كان يحب أن تراه و"مختار" – أثناء وجوده – ملهوفًا عليها، ويحرص أن يرسل إليك إشارات حبها له.. وكنت تقترب منه حتى تخالطه... فتعذره حين تتندى عيناه بالدمع..

يقول إنه لم يعد يقوى على بعادها..

فاستدعاها..

لا يأتيه النوم إلا على لمسة يدها ..

لمسة هى أحنى من الماء فى الصحراء اللاهبة..

يسرى الحنان فيرويه ويشبعه وترتخى الأعصاب..

ويروح فى دنيا الحلم.. وفيض أنغامها..

– لا شىء يساوى حضن امرأتك

تأخذك بين يديها فيتحقق وجودك، وتحتوى الكون..

صوته العالى يقصدك، ويستحثك ولا تصدق أن يذوب حبًا.. وهو الذى لا تراه إلا ممسكًا بالقلم.. والسيجارة بين شفتيه وعينه اليسرى تنغلق من دخانها – يدّون حساباته وينهر "مختار" حين يسخر منه.. ويتحسر على المال المرتهن لدى "الغامدى" والذى لا يقابل قسوة الأيام وغربتها .. يرفع صلاح طرف كلته، تراه بملابسه الداخلية، تائهًا مضيعًا ينظر إليك كأنما يبغى سماعك..

– حين تبتعد عنها... تقترب منها

ويتمتم وهو يضع الراديو على صدره..

– أنا الآن أقترب منها..

ويروح فى تهويمة فتدرك أنه يحاسب نفسه، ولسانه يردد

– أندم على لحظات الخصام التى تطول..

يسدل الكلة ويعلو صوته لائمًا... ونادبًا

– لو علمتُ أننى سأغترب .. ما تخاصمت أبدًا..

فجأة يجأر صوته.. ضاحكًا..كعادته تتبدل الحال، ويكسر "الرتم"

– نعلمك بلا مقابل.. دع الخصام واتبعنى..

.. لكنك لازلت تبحث عن لحظة الوفاق..

الأيام تسلمك للأيام... والنُّسخ تتكرر فى خواء نفسى...

تنشغل بعملك، ينسيك الوقت الذى تخشاه والوحدة التى تأكلك... ولحظات العراك خلف الكلة..

***

فى ليلة ثقل فيها الهواء، ومشت الرطوبة حتى كادت أن تُكشط من فوق الجلد، والحائط.. والآنية، تمدد "مختار" على العنجريب فى الفناء الواسع، وتحرر من ملابسه وبدا فى سرواله القصير الواسع مدعاة للتفكه. من حظه الحسن أن صلاح غير موجود.. فراح يدور فى المكان الذى لا سقف له غير سماء رمادية تتبدى فيها النجوم لامعة... قوية، وظل يصدر صفيرًا من فمه يحاكى فيه نغمًا قريبًا من إيقاع أغنية أم كلثوم "لسه فاكر..".

فجأة انتابته نوبة ذهول فتوقف.. حدق فى النجوم.. ثم بكى.. جاء بكاؤه حادًا... ورجته النهنهة... تتأجج مشاعره تجاه أولاده الصغار.. يطوف خياله بهم، ويظل يحكى فى آخر المساء عن زواجه الذى تأخر كثيرًا.. وأبنائه الذين يخشى عليهم غدر الزمن..

حين ارتخت مشاعره مضى إلى الكرسى وتمدد ثانية.

بدت بشرته بيضاء. ثمة مساحة حمراء أعلى الصدر، وعظام الترقوة النافرة تصنع فراغًا يلتئم كلما اعتدل جسده، أو رفع ذراعه.. خلا الجسد من الشعر فبدا أملس..

رفع صوته ونادى عليه..

خرج "صابر" من الحجرة،.. كان يرتدى الجلباب الأبيض الواسع.. تأمله فى ضيق ثم قال

- أتطيقه؟

تعوّد أن يراه عاريًا، يتحرر من ملابسه كأنها قيد عليه،.. لا تفارقه السيجارة، ولا تتخلى عنه عبسة تشد جبهته وتصنع الأخاديد... لمح حمرة فى العين فأدرك أنه وقع تحت وطأة انفعاله اليومى... وتمنى لو كان صلاح

موجودًا لخفف عليه الأمر فهو يطارده... ويلاحقه بالتعليق، وحين يلقى نكتة يبالغ فى تقبلها فيضحك حتى يسعل فى قوة.. ويردد فى بطء مقصود:- لا حل لك عندى إلا دور طاولة..

... هز رأسه وقال:

- أتشرب شايًا؟

وحرك جسده. أسقط رجليه وتهيأ للنهوض.. وقبل أن يدس قدمه فى المداس، خرج صوته بطيئًا..

- سأصنعه

تعود منه كلما أراد شيئًا أن يبادر بعرضه، ثم يهم به... فيسرع الأحدث عهدًا بالمكان.. أو الأصغر سنًا لتلبية المطلب... فيتمهل فى حركته، ويرنو فى عرفان ثم يعاود جلسته ويشعل السيجارة...

... ردد "صابر" فى عجالة وهو ينسحب ناحية الحمام..

- سأغتسل وأصنع الشاى

أمسك بالمروحة، حرك الهواء، وأبعد الناموس، اطمأن إلى زجاجة المياه الممتلئة بالجاز، يصبه كلما رأى الحشرة البنية كثيفة الأرجل " "

ووصله صوت فرقعة... فعلم أنه الآن يسكب الجاز، ويلاحقها ويشعل عود الكبريت، ويرمى به فوقها. تلتهمها النار، ويظل ينظر إليها... ثم يسبها.. وهى تتناثر أمامه، كان يبدو عليه شعور يقترب من التشفى.. وتسمع منه تنهيدة طويلة كأنه أزاح همًا يرزح فوق صدره.

وضع براد الشاى على الطاولة الصغيرة، واقتعد مقعدًا واطئًا من الخيزران، كان الغامدى أرسله مع كرسى آخر وصوان صغير للمطبخ.

اعتدل فى جلسته وراح يصب الشاى ثم يعيده إلى البراد.. ووضع عدداً من أوراق الريحان وأحكم الغطاء.. واتكأ..

نطق فى تمتمة

- شئ نصنعه بأيدينا

يختلط الدخان بالهواء اللزج

- المعلبات أفسدتنا..

يرتشف من الكوب فى صوت مسموع ويضج بالضحك

- حين أزهد المعلبات.. أعزم نفسى على واحد من المعارف.. فآكل الأرز باللحم وأحتسى المرق.

كان قد لاحظ دعوته الدائمة لحضور المناسبات..

لم يعتذر أبدًا.. يرمى بعلب سجائره فى حجرته، وينظف أسنانه ويرتدى جلبابه القطنى الأبيض، ويحبك غترته، ثم يتعطر من قارورة أتى بها من جولة تفتيشية.

- لا أراك فى مجالسهم

يملأ الكأس، وينحى ورقة الريحان الساقطة.

- لم يدعنى أحد

ضحك، ثم تبرم قليلاً وأشار إلى البيت المجاور

- ولا هذا..

كان يقصد حارس المعهد الذى يعمل فيه.. أتى من أطراف الجنوب البعيدة وعمل بالمعهد حارسًا، ثم استقر بالبلدة..

- أهل الجنوب يهاجرون كثيرًا..

وهو يضع كفه على الكوب إشارة على اكتفائه كعادة أهل البلاد..

- لا تأمن جانبه..

وراح يتحدث عن السوداني الذى كان يعمل بالمعهد منذ سنتين.. وعيناه مصوبتان عليه..

... كان مولعًا بالخمر، حتى تكاد لا تفارقه، يقارفها كثيرًا، ويدخن فى شراهة.. كان ودودًا... ويحب الجماعة، فلا تراه إلا فى صحبة إخوانه من السودان ومصر، واختلط بأهل البلد.. صادق الطلبة وشاركهم رحلاتهم فى البر كثيرًا...

كثيرًا ما تستّر وتخفّى... لكن.. من يستتر عن الطلبة فى الرحلات.. حكى زميله فى السكن أنه فى ليلة رأس السنة تخفى يومًا بليلته وظل يشرب حتى فقد وعيه تمامًا وانكفأ على نفسه غائصًا فى بوله وفضلاته... وخاض لسانه فى كل شئ..

خشى زميله على نفسه فقيده ودفع به إلى الحجرة وأغلقها عليه، ثم أتى بطست واسع، أجلسه فيه وغمره بالماء حتى اطمأن إلى سريان الروح..

ذات رحلة صاحب الحارس الطلبة.. وشاهده متخفيًا.. يشرب خلسة بين شعاب التلال... وترصده حتى اقترب منه وضاحكه.. ركبه الرعب.. فازداد قربًا.

بدت له عيناه ضيقتين كعينى ثعبان صحراوى، ولحيته الكثة كندف مكنسة الليف... تودد.. ثم طلب

- ولد... اسقنى.

أسدل المدرس ثوبه السودانى وترنح.. فكرر طلبه..

- ولد.. اسقنى

- ليس معى ماء..

ضحك فلاحت له أسنانه الصفراء كأنياب حادة

- أعلم أنك تشرب.. العيال حكوا..

اقترب منه، وامتد الكف، ربتت على الكتف والصدر

- أتصدق العيال.. يا بو مسفر..

- لا أصدق غير العيال

وصمت.. وران سكون لا تقطعه سوى نداءات الطلبة.

- تأتون إلى بلدنا، وتأخذون أموالنا

وتعلمون الأولاد الخرابيط، والحرام

ويمد يده، ويشده من كمه الواسع

- وتكذب أيضًا - وتدرسهم أن الخمر "رجز" من عمل الشيطان.

والمدرس، لم يكن يهمه كثيرًا أن ينقل أو حتى يلغى عقده. لن يقدم له خمرًا.. لا يحق لأمثال "مسفر" أن يعرف ماذا يفعل!.. ولاح السجن ضيقًا، وعقوبة الجلد تنتظره.. وتجريسه أمام الناس والطلبة يأخذ روحه قبل أن يأخذوها.. ما الذى جعله هذه المرة لا يجيد التخفى.. أكان يترصده!

- ولد.. أنا لا أشرب

وزغده بإصبعه الناشفة

- اعطنى.. كل شهر.. نظير سكوتى

وذهب الحارس كما جاء.

•• لوح مختار بيده لينبهه

- آخر العام.. ألغوا عقده..

ثم ضحك فى صخب، ونهض قائمًا.. وقعد

- أخلف السودانى وعده..

فقالوا أنه يسكر فى رمضان

دعك السيجارة بأرض الفناء..

ظل يطؤها فى غل حتى سحقها تمامًا

وعيناه تحدقان فى الأرض وتتابعان حركة السحق.

وزمة قوية قبضت على وجهه وهو يقول

- توسطنا له.. حتى لا يجلد.

.. لم يكن يراه إلا قابعًا خلف الباب، وكأس الشاهى فى يده، ويلذ له أن يقف فوق العتبة يستاك ويخلل لحيته المحناه.. وينادى على الطلبة أن يسرعوا.. يضحك لبعضهم، ويعبس للآخر.. يتحرر من جلبابه وغترته، ويدخن.

كان يلمح عددًا قليلاً من الطلبة يجلسون على أريكته ولم يمنع الباب الموارب من رؤيتهم يأكلون.. ويدخنون..

نبّه الغامدى إلى خطورة المَسلك تربويًا..

ابتسم من حنية فمه كأنه مجبور

- الطلبة مردة.. يعرفون كل شئ..

لم ينس تلك النظرة التى وشت بالمفاجأة، وهو يراه يتضاحك مع طالب، ويختطف منه السيجارة، ويعصر شفتيه بإصبعيه... باحت نظرته بغلّ واضح، تنبئ عن عداء.

قال مختار وهو يشمله بعينيه

- انسه..

وعاود النظر كأنما يريد أن يلقى إليه بأمر. عمله كموجه جعله يتعرف على نماذج متباينة، ويحتك بكثيرين، ويعقد صداقات مع الوجهاء.. يتوقع منه أن يبوح بشئ... يظل يرسل البصر ويطأطئ الرأس ويسرف فى التدخين ثم يلقى حمولته.

- ما الذى جعلك تذهب إلى الغامدى..

ليس لك إلا أن تدخل الفصل، وتلقى

الدرس، وتجلس فى حجرة المدرسين

فقط إلى انتهاء "الدوام".. وتعود إلينا..

وهزّه فى رفق، وبدا أنه تألم من ضغطة الأصابع

- احجب ناظريك، وسد أذنيك ودع

قدمك تسير.. وتذكر أنك جئت

من أجل حياة جديدة تنتظرك.

.... الذين ينتظرونك كثيرون... زوجة أبيك التى تتوقع منك دعمًا وهى التى ربّتك، وأختك الجميلة التى أسرع أبوك وزوجها.. تحتاج إلى ملابس، ومال تكنزه... فهى تتوقع الغدر ... وهى.. بوجهها الساكن فى غيمة شعرها، وقلبها المرسوم فى بياض عينها... توصيك... بالصبر، وتدعوك أن تعيش غربتك من أجلها.. فتلك السفرة... سفرتها...

ومطلوب منك، أن تترك نفسك لقدمك، وتلغى عقلك، وتسكت عن أخطاء تراها تمس عملك وتسيء إلى التربية.

***

كان الوقت خريفًا، وفلتات الريح الهادئة تتوالى على فترات بعيدة. والجو.. لا تزال تقبض عليه الرطوبة،.. وسعفات النخيل تتمايل فى حذر خفى.. وبدا المكان يستعد ليقظة مباغتة، وينفض عنه عباءته الساخنة التى جعلته يطوى داخلها كائناته. وبدأت الشوارع المؤدية إلى برحة السوق تتعرف على أقدامها، والناس يخبون فى أرديتهم ويوقعون على أديمها فى خفة لها شكل الوطء الثقيل...

وأطل "صلاح" من النافذة

رشته نسمة هادئة، وتجاوزته فى جرأة لم يتعودها، فحركت كلة السرير وأرعشت وجه "صابر" الغافى... فتمطى ومد يده وعقد طرفها.. ونظر.. يطل البيت على شارع جانبى...

... يواجهه بيت قديم.. وجميل.. أبقى على طرازه السالف، فجُدلت أركانه وقبابه من الأخشاب وأغصان الأشجار، وأحاطه سور مجدول فى نمنمة متقنة حتى لا ترى العين فراغا تلج منه... والنوافذ باتساع الرأس والصدر مزخرفة كالمشربيات..

لاحظ باب السور مفتوحًا فعلق

– الآن... ستخرج العجوز البيضاء..

لم ير أحد وجهها وهى تتكئ على عصاها، وخلفها أمتها السوداء... باتجاه السوق، أو ناحية بيت "الحارس"... تغطيه بشيفون أسود خفيف، يحجب الوجه لكنه يبين عن بياضه...

تسأل عن مختار... يوم أن أمعنت النظر فى وجهه.. أعلنت أن فيه عرقًا تركيًا... وظل مختار يتندر بوصفها للجمجمة، وانحناءات الذقن واستدارة العيون.. وحدة الأنف... كلما جاء ذكرها..

كانت قد أعدت مأدبة كبيرة بمناسبة زواج ابنها الأخير والذى يعمل خارج الوطن.. دعت لها كبراء البلد، واصطحبه رجل التعليم وطالت السهرة. وفى الوداع، تقدمت، وسلمت، سافرة الوجه فى حشمة طاغية، وسلوك محترم..

لحظتها... وصفته، وحددت عرقه، وداومت على دعوته كلما أقامت مأدبة.

نظر فى مرآته.. فصاده بركن عينه وهو يطمئن على هندامه، تأنى وكبس طاقيته البيضاء، ثم أسبغ على جسده جلبابه الأبيض، واستدار إلى رف خشبى، وتناول قارورة العطر ورشها فى سخاء...

زاحمته الرائحة فتأفف.. علا صوت "صابر" كأنه ينهره.

- قلنا.. أبدلها بعطر البشر

ضحك صلاح، وعاود الضغط على رشاش العطر. ذكرته الرائحة الزنخة بعرق الهنود. ذكّره برأى مختار فيه.

- أنت تشترى الرخيص

تهيأ للخروج، وعرض عليه التنزه، وخيره بين الجسر أو اللسان، أو برحة السوق. أهمل صابر الدعوة...

والتقط صحيفة محلية وجرت عينه عليها

- ألا تحب أن ترى امرأة!

ومد صلاح يده وفتح شباكًا يطل على درب ضيق..

هبت رائحة نتنة، وتطاير ناموس كالهاموش، وصاء جرو صغير.

- لعلك تتسلى!.

نتر نفسه،و أغلق الشباك و صاح في ضجر ملبيًا

- إلى السوق .

***

تتلاصق البيوت وتتشابه وتمتد في نظام واحد. نادرًا ما ترى بيتا بطابقين، علي غير ما تراه في البيوت المتطرفة.. المداخل واطئة، والنوافذ ضيقة وعالية ..

ثمة أعمدة متناثرة قائمة علي منحنيات الدروب ، تنزف في الليل ضوءا شحيحا ، و المحال صغيرة متجاورة تفرش الطريق الصاعد إلي برحة السوق.

شاهدا "الغامدي" يجالس نفرا من الأهالي. ألقيا السلام و مشيا .. أكثر "صابر" من النظر فى الوجوه.. اليمنيون فى حوكاتهم القصيرة يذرعون الأمكنة، يدخلون، ويخرجون .. ويعرضون خدماتهم .. وعجائز الإماء السوداوات، اللائي تحررن حديثا ، يسترن صدورهن العارية بشيلان سوداء لا تحجب شيئا .. يضقن بتحررهن ، فلم يعدن قادرات علي تدبير الطعام.. أو المأوى .. تراهن يتهالكن متسائلات .. أو متطلعات يشحذن بعيونهن .. قليلة هي المرات التي يري فيها امرأة تحكم عباءتها .. تكتفي الواحدة منهن بانسدالها الواسع . و تترك للهواء – إن هب – أن يجسمها و يحددها.. و لن تجد محددا إلا هاتين العينين الكحيلتين ، تضجان ، وترقبان .

.. فجأة رآها تمسك بيد طفلها خارجة من البنك .. و العباءة المسدلة تغمر جسدها الممتلئ ، و منديلها الأبيض المطرز بالخرز يشد رأسها و

يحجب شعرها إلا من خصلة تتأبي .. و لاح الوجه سافرا .. من الوجوه النادرة لنسوة متعاقدات. يتبدى وجه المليئة مشدودا، و متوترا، كأنها ترسم معالمه ..

لاحظ العيون تتابعها، و "سعيد" من خلفها يقبض علي سلة ملأي بأغراض منزلية..

تباطآ في المسير، و تواجها في برهة خاطفة..

ثم وقفا أمام البنك.. المقر صغير كأنه دكان و "الزهراني" يجلس أمام مكتبه.. يعمل وكيلا بالمدرسة المتوسطة التي يعمل بها صلاح مدرسا للرياضيات .. يمارس ما يمارسه الغامدي ، لكنه يشرف علي فرع البنك الأهلي التجاري بالبلدة.. – المقر الرئيسي بجدة – فاقتصرت حركة التحويلات المالية عليه فازدهرت تجارته .

هبت رائحة الخبز الطازج من مخبز "التميس" علي ناصية الدرب، واليمنى يبذل جهودا متواصلة لتلبية رغبات الواقفين، التميس بالسمن، بالسمسم، بالزبد البرى أو بدون شيء.. مسحة من الزيت تكفى.. يتناول العجين المكور، والمخمر، يفرده على "مطرحة خشبية" ثم يضعه على صينية مقببة ، ويلقي به في الفرن مستويًا دائريًا. يقبل الجميع عليه . يشتهيه مع العسل بالطحينة .. مثلما يحب تناول الفطير "المشلتت". اشترى صابر رغيفين وابتاع علبة الفول، والجبن المحفوظ، والحلاوة بالفستق وعلبتين من الكمبوت، وسجل مشترواته لدى الغامدى. وابتاع صلاح من "الزهراني" الزيتون والجبن المطبوخ وسجل أغراضه أيضا.

مر بالقرب من المستوصف الصحي فأحب أن يطمئن . اعتذر لصلاح كي يلحق بالطبيب قبل انتهاء فترة العمل في المساء . و تواعدا على اللقاء بالمقهى فى برحة السوق ..

و مع أن أموره الصحية مستقرة إلا ان حالة الإمساك التي يعاني منها تقلقه ، و تؤلم جانبه الأيمن ..

.. يثيره وجه الطبيب العراقى، حين يتحدث كثيرا عن فترة دراسته بالقاهرة و سكنه في حي الدقى. تؤلمه بسمته الخبيثة كلما جاءت سيرة النساء .. كأنما يتعمد إغاظته .

أعطاه "اللبوس" وحبوب الهضم، وأكياسًا فوارة.. ونصحه أن يشرب المياه صباحًا..

وقال وهو يضغط الجرس أمامه

– زجاجات المياه أفضل لك .

وابتسم فى مكر– لا تبخل على صحتك .

.. هلّت طويلة، نحيلة تلملم بأصابع يدها أطراف عباءتها، وعيناها تومضان. قبل أن تمرق إلى غرفة الطبيب رنت إليه في إطالة. خالها تبتسم.

أثاره الحنين، فارتجف، فعدا خارجًا. استقبله الدرب، فاستدار وانعطف. العين الوامضة تدفعه، وتغريه بالمطاردة، والفضاء الذى جابهه فى الخلاء، يتجلى بسمائه الرمادية، ونجومه الثاقبة. من هذا الذى يسوقه، ويدفعه بكفه الساخنة، ويجذبه إلى الخروج، ويزين اللقاء!! لعله هذا الذى يراقص الضياء فوق حافة الأفق ويتكئ على عيون... كأنها العيون الرانية. أتكون أرسلتها، أو تلبست بها، أو أوكلتها بالمراقبة!!

....•• تأتيك الأصوات المبهمة، فتختلط فى سمعك كأنها نغمات هائمة، تحس كأنما الريح الخافتة تحمل ألحانًا راعشة، كأن حفظة المكان من

الجن والملائكة أرسلوها إليك لتسكرك... جمعوا نورها فتجلى وضيئًا، يختال في الأعالى ويسرى رهيفًا، يحاكى الفراش فى رقته، والعطر فى زخته... من سلط الوجه في غيمته، فقبض على جفنيك واستل بؤبؤك!

وأنت سادر معه، تقفز محلقًا معه، تطير سابحًا حتى يكاد الفضاء يأخذك، فترى النجوم راقصات فى معابد السماء، والماء كالرضاب ينساب كخيوط من لجين، وخداه – الوردتان – يغتسلان فى اشتهاء ويزهوان.

وأنت تنتظر، أن يستدير الوجه ويكتمل... مطعون فى قلبك. فرحت سادرًا، تلملم العين والحاجب، والخد والشفة، الأنف والجيد، والدائرة.

.. تبتهل فيرحمك الإله ويجمعه. وجهك الساكن فى غيمته يتجلى فيك فيرفعك، ترمم الوجع وتصنعه، فيصنعك..

يؤنسك حين يتجلى فيك ويغمرك، يباغتك ويسكنك.. تزفين نفسك كل ليلة، وتمتطين قاربك، وتملئين كأسك المراق فوق مخدعك.. وتتركين فم فارسك المنتظر، لا يطول ماءً ولا يصيبه القطر..

ومدّ يدك أيها الغافى المنتظر

وأرسل الريح إليها، حمّلها طرح روحك

وابتهل، وافتح الشباك.. وانتظر..

لعل حبك البعيد يعالج صدرك العليل.. ويلج..

.. هبت رائحة عطنة محملة برطوبة مالحة، فضغطت عليه، فانتبه.

لاح الخلاء أمامه فسيحًا معتمًا، وغطشت أعالى البيوت الواطئة فاحتجبت.. ووصلته أصوات صحراوية فارتجف، ما الذى جعله يبتعد، وهو

الذى كان يقصد الطبيب... ويطلب الدواء.. لكنه الآن يواجه العتمة... ولابد أن "صلاح" يتضجر من انتظاره.

***

مغرم بالتجوال فى الدروب الضيقة، وتتقاطع فى ذهنه فيعلق به بيوت الزوايا... وأبوابها المتواجهة. ويحصى الأعمدة المطفأة، ويقول فى إغراء: لو ألقيت عليها عباءة باتساع المكان لتحولت إلى سراديب تحت الأرض... يضحك صاخبًا: ولن يراك أحد، وأنت تمشى كالعسس. ويؤكد وعيناه تومضان: الأولاد العفاريت يتعمدون تخريب الأعمدة حتى تبدو السكك غارقة فى العتمة.

ويروح يحصى الأماكن ويرسم لها خارطة تظل لابدة فى عقله، يظهرها حينما يهب فى حالات كدره والليل فى هزيعه الأخير داسًا قدميه فى المداس... ويمضى يجوب الطرق..

... يكثر تواجده فى البرحة الواسعة. يقتعد العنجريب فى المقهى الكائن بطرف السوق ويرمق الإماء من النسوة وهن يجلسن على مقربة من المقهى، يعرضن بضائع رخيصة، أغلبها أثواب ومفارش ومسابح، وصنادل وقوارير من العطر..

يدفع صلاح بمبسم الشيشة فى صدر من يحادثه

- الأمة سافرة الوجه، حاسرة الصدر

ولا يزجرها الآمر.. هل!

ويصمت، ويداوم النظر متطلعًا لصاحبه الذى يهرب منه ويردد..

- ربما لأنها أمة

ويروح يصخب فى جلبة حتى يلفت الأنظار إليه...

تدفعه الهمة أحيانًا فيبادر بفعل يوحى.. بنشاط طارئ يزيح به بلادة تسرى فى مشاعره... وكدرًا يعتريه حين تتأخر رسائل امرأته.

... كان قد شعر برائحة العطن تهب عليه وهو يقف أمام صنبور المياه ليغتسل للصلاة... ومع أنه يرتاد المساجد نادرًا إلا أنه يسبغ الوضوء كأنه يغتسل.

زكمته رائحة أعقاب السجائر التى يرميها مختار ويظل ينتظر وشيشها حتى تنطفئ، يتجاهل الضرر المصاحب، وأسراب الناموس التى ترسل طنينها فى هباتها المتواصلة.. والنمل الصحراوى الأسود ينخر الأركان ويضيف إلى معاناتهم من الحشرات الأخرى مضايقات جديدة..

دفعته الهمة فخلع جلبابه، ومسك بالسلاكة، وظل يضغط حتى انفتح مجرى البلاعة فتسرب الماء وأزاح الفضلات، وملأ الإناء وصبه مرات حتى أزال الطبقة السوداء المخضرة وبدا القرميد الأحمر غامق اللون زلقًا.

وأتى بورقة وكتب:

ممنوع منعًا باتًا إلقاء تفل الشاى، أو أكياس الليبتون أو أعقاب السجائر... ويجوز للمجنون فعل ذلك.

... وعلق الورقة على الحائط، ثم أتى بقلم أحمر وكتب:

- توقيع إنسان يحب الروائح الطيبة

حين قرأها مختار تحيّن الوقت وكتب بلون أزرق.. وبخط كبير.. ولو!!

ظلت الورقة معلقة حتى بهت لونها.. ولم يبق منها واضحًا إلا كلمة المجنون...

كان صلاح يرى أن وجوده يتحقق فى وجود الناس.. ويردد وهو يشير إلى صابر فى حدة كأنه صبى يعلمه..

- ما سمى الإنسان إلا لأنسه

يهرب من الضغوط التى تصيبه حين ينفرد بنفسه..

ويظل يرتل.. دخلت معبدى فطردت سكينتى..

حين يسمعه مختار يردد عبارته عن المرأة التى اقتحمته.. يفز واقفا ويهرول تجاه غرفته ويأتى "بالكاسيت" ويعلو صوت أم كلثوم صادحًا.... فترتخى مشاعره... لحظتها يستعد صابر لعمل الشاى وإحضار مكسرات مملحة وحبات من التمر.. ويشهد حوش البيت صخبًا عاليًا وضحكات تتوالى وخبطات قطع الطاولة تتعالى فى صوت يصك السمع..

أحيانًا كان يطيل المكوث في البيت... ينتهى عمله فى وقت الظهر فيترك المدرسة، والزهراني، وشرب الشاى، وحديث الذكريات... ويؤجل تصحيح الكراسات، والإجابة على أسئلة الطلبة... ويمضى فى هرولة كأنما تسوقه مشاعر مضطربة، فيظل يتلفت إلى أن يغيب، وكأنما يتحين فرصة يخشى أن تفلت منه.

وصابر لا يعود إلا متأخرًا، يتلكأ، وينشغل حتى يكاد يكون آخر من يغادر المعهد، مع أنه ملول وهاجر للمكان.. يضيق بالفراغ، والصمت القابض، والجدران الكالحة.. ويتمنى لو يستطيع قضاء اليوم بطوله فى الخارج خاصة حين يغيبان عن المكان... ويبقى وحيدًا فى مسكنه..

حين دخل البيت مبكرًا على غير عادته شاهد صلاح بملابسه الداخلية وعلى رأسه منشفة مبلولة، يلف الحوش - والشمس المتعامدة ترسل شواظًا من لهب - يتقارب من الجدار المجاور، يتباطأ ويتأنى، يتوقف ثم يطوح برأسه وينتفض.. حتى خاله محمومًا، فهرول إليه..

وصله صوت نسائى ناعم قادم من البيت المجاور. أدهشه أن تشمله راحة عميقة أرخت جسده وألانت ملامحه فتدلت وانسحب ناحية الحجرة.

أحس أنه ضبط متلبسًا فرنا إلى صابر وهمس فى تنهيدة مصاحبة.

- حتى لا أنسى صوت امرأتى..

راح يحدثه عن الصوت النحيل، الذى تبوح رناته ومخارج حروفه عن تأفف وضجر، وتحمل ترddداته العالية وإمالة أواخره جرأة واقتحامًا، وخطفة الصوت الممدود تنبئ عن حس وحشى كامن.

بانت ملامح الذهول على الوجه وهو يستمع إلى تحليله للصوت الذى سمعه، وضحك صابر واصطاد انكسارًا فى العين وقال فى نبرة جرص أن تكون مريحة

- كأنك تخصصت فى الموسيقى.

أشعل سيجارة وتملى دخانها

- للصوت مقامات

أراح جسده على السرير واتكأ على الوسادة

- وللمرأة مقام معلوم..

سافرت عينه مع آخر خيط يتصاعد من سيجارته.. وبدا كأنما يدخل فى خباء يشف عن رجفة محتوية... وشفتاه تواصلان الحركة... والتمتمة...

... مقام صوتها لدىّ فوق كل مقام.. تتداخل فيه النغمات وتتشكل.. وحين ينطلق يعطيك براحًا متسعًا فتطير محلقًا.. تتسمع إلى الأعالى، والملائكة تصدح بنشيدها العلوى فتذوب رقة، وتتحل عذوبة، وتتبدى كموجة منسابة لا تعرف لها حدودًا..

وحين تدهمك تشعر كأنها تسرى من وريد قلبك، تحمل الدفء والرى والضغطة الخانقة، الناعمة...

لحظتها أتذكر هذا الحب المنفرد الذى يقتحم ولا ينتظر..

أسرع صابر فصفق بيديه، وفتح – فى ضجة – النافذة العليا وادار مفتاح الراديو... وخشى ان يطوله الحنين.. فعلا صوته وهو يقترب فى وجل

– صوت من الذى حرك المواجع!

تلفت صلاح فى نشوة وهو ينبه إلى الصوت النحيل، الجرىء، المتأفف، الجائع، الغازى القادم من بيت الحارس البليد على محفة من رطوبة زلقة.

– الزوجة الجديدة

ومع أن الكلمات التى نتحدثها قديمة وتراثها مُوغل فى القدم، فلقد اندهش من الوصف الذى تمدد وتنّوع ولف حول المعنى. ورأى صابر فى ملامح الانفعال المصاحبة إضافات إلى المعانى القديمة، ووشى وجهه الواقع تحت وطأة الغياب الحسى بتطهّر ما، وبتحرر من القيد الضاغط.

وتذكر الحارس فى حسيته الجائعة وهو يدعوه لوليمة العرس.. كان الوميض البارق ينز من عينيه، ويده تمسد لحيته فى تأن متعمد، وعضلات وجهه مشدودة، ولامعة، وشفتاه تتفرجان عن بسمة منضغطة كأنه لا يريد إفلاتها وهو يجيب على تساؤل عفوى..

- لكنك متزوج.. وولدك متزوج..
- زوجة صغيرة تجدد الشباب

ومد يده، وبسط كفه ثم نغزه بإصبعه وضحك

- جدد حياتك

وألح عليه أن يأتي وقال في عبارة كالحكمة

- المرأة عشق الرجل

لم يكن يتوقع من الرجل أن ينبسط في أمور خاصة كهذه، فهو لم يكن منفتحًا عليهم بالقدر الذي يسمح بذلك، إذ حرص على أن يظل بعيدًا قدر استطاعته، وصنع مسافة حاجزة لا يتجاوزها. فالقلوب تنطوي على مشاعر مبهمة ومختلطة وإدراكها أمر يعجز عنه. ولم يبق سوى البعد عن مكاشفة النفوس، وطرح الأسرار جلبًا للراحة واتقاء للقلق الناتج عن مزاحمة الآخرين.

ورضي عن شعوره بالأمن... مع علمه أن أمن كالنبذ.

... في أوائل عمله بالمعهد – وكان قد تأخر قليلاً كعادته – استوقفه الحارس وحادثه في اقتحام، مرددًا ما سمعه من الطلبة عن إخلاصه، وصدقه في العمل الذي يصل إلى الضجر... هؤلاء العفاريت لا يعجبهم العجب... ونصحه في ود مشوب بنذير ألا يتأخر كثيرًا في الانصراف.. فالألسنة لا تكف عن الخوض في السيرة. ثم ضحك، مبتلة أسنانه بروالة صفراء وأشار إلى أنه يضطر إلى الانتظار ليغلق بوابة المعهد.. وكفاه مكوثه الطويل في الأيام التي يأتي فيها المعلم سعيد ليدرب فريق الكشافة. وأنتم والله أمركم عجب.. تعلمون أنني معرس جديد، وتظلون تسهرون حتى الفجر، ولا أرى أحدًا منكم يصلي.. والله لولا الغامدي لأوقفكم القاضي.

وجذبه فجأة وأصر أن يشرب الشاى معه.

ونظر إليه فجأة وقال:

- تعرف عبد العزيز..

- عبد العزيز من؟

- المصرى!

نطقها فى قوة مستهجنة، وطالت سحنته قتامة رمادية، ولاح أسى يقبض على عينيه ويشد تجاعيد جبهته، وظلت يده بأصابعه المتسخة تهف وجهه كأنما يبعد ذبابة ملحة تناوشه ثم حدق فيه بقوة...

... كان الأمر كالصاعقة.. حين دخل الرجل على زوجته... رآها مكومة فى زاوية الحجرة، تحوطها غمامة سوداء مضببة وفرائصها ترتعد وتشنجات تأتى وتروح فى متوالية سريعة... وبدا أنها غابت عن الوعى ، لم يُدر بخاطره مثل هذا الأمر أبدًا... يقولون دائمًا أن هذا البلد آمن، وأمن المقيم فريضة واجبة، مثل المواطن تمامًا.. وتوقف قلبه. وتصلبت عيناه وراح كالغريق يلاطم الهواء والسواد والعجز كى يصل إليها.. فى ركنها النائى عنه .. والذى يفصله متران لا يزيدان..

... أدرك الأمر.. وظل يرمح فى البيت.. لعله يجد أثرًا.. أو يعثر على شىء.. وظل يكظم القول.. من فعل فعلته؟

قطعت السكين كبده، فاهترأت وشعر بأن دمه يفيض ويعبر الجلد ويغمر المكان.. والدماء تنزف منها.. والوحشية بادية فى خمش الوجه وقطع الثوب، وانكشاف الكتف ، وانحسار الثوب، والكدمات المدممة.. عاجز هو عن فعل

شيء... ألجمه الموقف، وأرعبه الخوف من ذيوع الأمر، وأهمه أن يعيدها إليه.. ويدخلها قلبه.. وتقدم في ثانية كالدهر، أخذها في حضنه.. لملم أشلاءها، وبكى. جرفه دمعُها فاحتجزه وظل يحتضنها. متى انتهيا؟.. وما الزمن الذى قضياه ملتصقين حتى كاد الجلد يتسلخ منهما وهما ينفصلان ليدبرا أمرهما؟..

في إجازة نصف العام سافرا.. ولم يعودا.. ولم يُطالبا بحقوقهما المالية والمعنوية... كانا يعلمان ألا أحد بقادر على المساعدة، وأن سفارة بلده غائبة عن الوعى ومنتهكة.

كاد يشتعل.. صب عينه في عينه.. ونفذت أشعة مسنونة كاوية فخطف الحارس الكلام وقال..

- كانت جميلة

يعلم الله.. أننى نصحته أن تستر الوجه.

واستدار، وأحبك غترته

- ستر الوجه يبعد الغواية

وعاد يهف بيده على الوجه كأنه يطارد ذبابة، وحين أخبره أنهما سكنا نفس المكان الذى يكتريه حتى داخله هاجس بأنه لا يجهل الأمر تمامًا.. أزاحه من أمامه بقوة أفزعته. كيف واتته القوة لترمى بالرجل على الأريكة وهو الضخم المدكوك.

ومضى رامحًا إلى حجرة المدرسين. قطع درج الدور الأول في خطوتين، ورمى بالحقيبة، وأحدث ضجة وهو يفتح أبواب مكتبه، ماذا يريد بالضبط! ما هذا الشعور الضاغط الذى يحتويه ويعتصره! من يضمن

للمغترب أمنًا بسيطًا يكفل له أن يأمن فى نومته! ألاّ تتسرق أحلامه! او تنتهك آمال هشة صغيرة دفعته إلى المجيىء!! من يخبر المتربعين على دست الحكم فى بلده أنهم طاردو أبنائهم وأول المنتهكين لهم..

وقبل أن يجلس رآه "عامل الشاهى" فانتفض قائمًا. لم تفته حركة الطالب وهو ينسل كغصن مارق.. لاح الوجه ممتقعًا، والغرفة معتمة، والقلب المحتجز دمُه كالحجر. ركل غترة العامل وهو يمضى فى طريقه إلى الباب نازلاً.. ليستقبله فضاء معتم وسماء رمادية تلقى بمخاوفها فتصيبه بالوهن والعجز.

***

ارتفع الصوت نائحًا ومتمردًا، يضرب الجدار الفاصل بقوة، ثم يهوى إلى الصمت. فتتعجب كيف لمثل هذه الرجعة المدوية أن تستسلم وتذوب فجأة كما هبت فجأة فتحدث تكوينًا لحنيًا نادرًا... فتبدو رنة الصوت كلقلقة الطائر الحزين فى أواخر غبشة الليل وغطشة الفجر.

افتقد الليل نكهته الرمادية. وسكونه العدمى عقب انطفاء الصوت.. خفت اللزوجة ومال الهواء إلى لسعة خفيفة حملتها هبات شحيحة من ريح رطبة فاحتكت بالجلد، والوجه، والعين، وأصابع القدم وجلد الجبهة المغضن.. تغرى هذه اللسعة النادرة اللائذ بكلته أن يرمى ملاءته، ويفتح بابه ناحية الحوش الواسع كى يلحق بذيل الهبات المنفلتة.. فهى كالصوت تهب ثم سرعان ما تنعدم.

وقبل أن يظهر "مختار" بملابسه الداخلية وسيجارته المشتعلة كان قد سبقه "صابر" إلى المقعد مستندًا إلى الحائط الجيرى الذى ارتطم به الصوت وهوى.

غزا ضوء النيون على شحته مساحة المكان وبدا منثالاً على هيئة سلوك وهمية كخيوط ناموسية واسعة، وارسلت فراشات الليل وهوامه أزيزها وطنينها وهي منغمسة في الضوء، وقاصدة إليه.

وراحت العيون تحدق في الأرض والفتحات، باحثة عن الحشرة البنيّة المهدبة، أو العقرب الأسود في تربصه وقفزته.

... ظل مختار واقفًا للحظة، يرهف السمع. ويرنو إلى مساحة الحائط الصلدة.. حرك جسده في هزة مفاجئة واقتعد العنجريب.

تعودا على فلتات اللسان.

لو كان صلاح موجودًا لقبع بجوار الحائط. كان غائبًا كعادته بعد صلاة العشاء. يظل يدور في الأزقة أو يجالس تلاميذه الذين يعملون بالمحال، أو المقاهي المتناثرة.. حتى إذا دخل الليل وأوغل يدفع بنفسه غصبًا إلى الرواح..

... لعبا الكوتشينة، وأكلا المكسرات، وعلا صوتهما، وسكبا – معًا – الجاز في شقوق الحائط، وضحكا سويًا وقال مختار..

– لعله يحجز الصوت...

وخبط بيده، وأبرز ورقة الكومي في صخب ثم همس فجأة...

– للشقوق سرها.

وحين دلف داخلاً، وقبل أن يواجههم صاح مختار طالبًا منه وقبل أن يخلع جلبابه أن يصنع الشاي عقابًا له على تأخيره.

تجاهله، وارتمى على العنجريب، مد ساقيه في تأفف، وراح يمعن النظر فيهما. تابع صابر – بركن عينه – مختار وهو يرتب أوراقه خشية لعبة مباغتة فيربكه ويفوز.

رتب الأوراق وقال دون أن ينظر إليه

- اصنع الشاى ولا تعتذر

استقام جذعه وعرى ساقيه ونطق فى لهفة مدعمة.

- ألم يصلكما الخبر؟

توقفا فجأة، وتوجسا

- لدغت العقرب محمد الأبيض فى كفه اليسرى

- متى؟

- بعد صلاة العشاء.

.. جأر الولد، وراح كالمجنون يتخبط ويصيح... مناديًا، ومستغيثًا.. تجمع الشباب، ونصحت واحدة من الإماء بصنع لبخة... الجلد يحمر فى زرقة، والولد لا يقوى على الألم... مدرس أولى، صغير السن فى عمر طلبة المعهد ... طرى العود.. من له بترياق السموم؟

كان الأمر صعبًا والسكين تشق الجلد وتقطعه.. الدم يسيل، ويعتصره، ويمتصه، ويبزقه على الأرض... "ولد الفقيه" راعى المقهى..

وخطف السيجارة، وأشعلها، وامتص دخانها فى لهفة..

- لولا أننا وجدنا الطبيب فى بيته ما كنا نعلم كيف ينتهى الأمر..

وقف صابر ونتر نفسه، وأحس بشعر رأسه ينفرد كالشوك كأنما الأمر حدث له، وظل يتحسس كفه .. وينظر حوله، ويخب فى خطوته كأنما يخشى أن يصيبه مكروه، أو يخرج إليه من شق، أو يهبط عليه كالعنكبوت... هذا الأسود القاتل..

أدار مختار نظره بينهما وابتسم ضاحكًا

- لعل الولد محمد لم يصلْ فعاقبه ...

تداخل صابر وصلاح يتسحب إلى غرفته، بلله عرق نابت وأرعشته قطراته المدورة وهى تنزلق على وجهه.. مدد ساقيه فوق العنجريب، واطمأن إلى كيزان المياه... لكن من يطمئن إلى فضاء مفتوح لا يمنع الأذى أو يحجبه.

وتمتم فى خوف حقيقى: الموت يلاحقك.

... حرص كل الحرص بعد النصائح التى وجهوها إليه أن يراقب منسوب المياه فى كيزان الصفيح، وأن يضع أوراق الشيح كى تطرد رائحته ثعابين الصحراء البيتية... وأن ينفض جلبابه كلما ارتداه، وأن يقلب الحذاء، ويدقق فى حناياه... ظل يرتعب كلما جاء ذكره بذنبه القاتل... إلا أنه لم ير عقربًا واحدًا سقط فى حيز الماء.

بل لم ير واحدًا منها فى بيته بالرغم من الشقوق والحفر.. وعيدان البوص الساقطة من فوق السقف القريب من الحوش.

كل ما كان يراه ويخشاه نوعان من الحشرات ظل يترصدهما... الحشرة المهدّبة - أم أربعة وأربعين - وهى تظهر فجأة، تتلوى بأرجلها المشعرة الكثيفة وقرناها الطويلان النافران كهوائى راديو قديم... وكان كلما يراها يسرع - هلعًا - ويسكب عليها الجاز ويشعله، ولا تستريح نفسه إلا حين يراها تتكوم محترقة.

الحشرة الثانية... تزاحمه كلما أبصرت عيناه حائطًا، أو بابًا أو حاجزًا... "الورل" الذى لا تكف عيناه الرماديتان عن التحديق، ويتخفى بجسمه الرملى وسط الأغراض... ترعبه نظرته وهو يطل من بين ألواح

السقف المتآكلة، ومن شقوق الأخاديد التى ضربت الخشب بالطول... فيظل يظهر ويختفى فى حركة تعجز اليد أن تطوله.

كل ما يقدرون عليه أن يحتاطوا فلا يتركون طعامًا مكشوفًا وأن يتأكدوا من الكلة وهى تحيط بعمدان السرير من السقف والأطراف وتحت الحشية الإسفنجية حتى يضمنوا نوعًا من الحماية من هوام الصحراء وحشراتها القاتلة..

ومع أن الهواء راكد وثقيل، وينشع برطوبة لزجة، والباعوض يطن فى معزوفة متواصلة، إلا أنه لم يقو على التفكير فى التخفف من صرامة الكلة وإن أحس بضيق فى التنفس، فهو محاصر بلدغات الناموس و "عقرة" العقرب الصحراوى.

.. لن يخرجه من هذا الكابوس غير الوجه الذى بدا يستعصى عليه...

هل.. يشعر – وسط العيون المسبلة – بطعم الدمع وملوحته وأنت تبيت فى ليل صحراوى موحش.. يجيئك النوم خلسة على محفة من الرعب الذى لا تغفل زوراته الدائمة.. لغرفتك الرطبة بهوائها الثقيل الضاغط! أتسمع – وهى تنصت لآهات أم كلثوم فوق حشاياها الوثيرة – جوقة الباعوض وهو يباغتك ويحتجزك كالسجين – إلى متى تقوى على الاستدعاء.... والوهن أصابك، واقتحم خيالك.. ما الذى جعلك تهرب، ولا تتجلى أيها الوجه المراوغ؟

جمعت الجمال، والجلال والمخاتلة، وفاض موجك المنسدل فاحتجبت، وداريت حلمك، كأنما جمعت بين ملاك وشيطان، وأدرت فى القلب صراعًا ظل يناوشك... ما الذى جعلك تنأى عن خميلتك؟.. هل أغرتك أطيار فحلقت بك.. أم وصلك الشعور بالخوف واحتجبت فى هالتك ولذت بالصمت!!

الرعب... يأتيك من حيث لا تدرى، ويطغى على خلاياك الواعية ويتلبس بك توجس يلازمك فى صحوك ومنامك..

وها أنت تجد نفسك مسجونًا فى دهليز معتم، يحرمك من لذة النوم...

***

... فى خلسة الكرى أراها تمد يدها إلى.. أطل فى عينيها فألمح استجداء كالشحاذة، وتهدلاً على الصدر لا يخفى شيئًا... وعريا واضحًا للفخذين... وأتعجب من اليد الممدودة وهى تتلوى مع أنها تبدو كقطع اللحم الحمراء المشوية..

يواجهنى الوجه المتسلخ.. بحرارة النيران.. وملامحه تضج بألم ممض... وبدا المشهد فى غاية القسوة والنيران تهب من أطرافها ولا تكاد تنطفئ... الهلع الشديد الذى أراه فى عينيها سكب الخوف فى عينى.. وتجمدتُ حائرًا... وهى تجأر بالصراخ، لكننى عاجز أن أخفف عنها آلامها..

أحاول أن أتوهم الشكل وأستدعى الهيئة... أتكون هى!..

لكنها ماتت منذ زمن بعيد... من أخرجها من قبرها لتمد يدها الحمراء وتناشدنى أن أساعدها... أنقذها من لهيب النار؟.. هل جاءها الخبر أننى قريب من الرسول فهبت من نومتها الأبدية تطلب منى الدعاء، أو أهبها عمرة علّها تتخفف مما هى فيه!!

شدتنى بأمراس قوية... فلم أعد أطبق العين.. وشفتاها الحمراوان والمدممتان... تنفرجان عن همسة لا تبين.

- خذ بيدى

يا ربى... أتكون هى!.. هذه المستلقية على الأرض الخارجة من قبو النار، الحابية على ركبتيها، المادة يدها المسلوخة.. أتكون هى!..

من الذى أخرجها، وجذبها إلى سطح الأرض، وأغرقها فى النار، وهى العابدة، المصلية، التى يضرب بها المثل في الزهد والمكاشفة!!

لعلها هى!!

كنت زميلاً لولدها... صادقته زمنًا، وتلازمنا معًا.. وكنت حين أذهب إليه أجدها فى غرفتها تبدل ثيابها وتطل فى مرآتها وتمشط شعرها.. حتى احترت فى أمرها، وتصورت أنها لا تكاد تجد وقتًا للصلاة، وأدهشنى ولعها بجسدها، وهى تبسط كفها عليه... وتتوقف عند مناطق تمعن الضغط عليها... ثم تفلت - كالعمد - آهة ممطوطة تظل تتابعها حتى تتلاشى - وتشهق حين ترانى، وتخبط صدرها بكفها البض وتقول كالمؤنبة:

- اتنحنح لما تدخل.

وتبتسم حين ترى انبهاتى ويعلو صوتها

خطرت على بالى.

وتمد يدها، فأمد يدى وأنا أكاد أذوب حياء يقيّد نظرتى ومسار عينى.

وتقبض على يدى، وتتملى وجهى، ثم تفرك خدى بإصبعيها

- ليت ولدى خجولاً مثلك..

كان يحب اللهو والممازحة.. وكرة القدم، ونادرًا ما أجده فى البيت.

ينبسط كفها على رأسى، تتخلل أصابعها شعرى الملبد وتجذبنى إلى حضنها وتقول...

- ألا تطعمك امرأة أبيك!..

وأشعر بفرائصى ترتعد، وهى تضغطنى بجسدها ورأسى تطول صدرها البازخ، وأعضاؤها تتجسم فوق مسام الجلد، وأنا تارك جسدى كله لها... ثم تأخذنى من يدى كطفل صغير... وأنا المقيد فى الصف الأول الاعدادى وتجلسنى بجوار جسدها المنطرح على الكنبة الاستامبولى.

تطالبنى أن أنظر فى عينيها، فأنظر فى عينيها، وأرتجف

- عينى كبيحرة الماء

أرمقها.. فتشجعنى... وأنا لا أدرى كيف تكون العين كالبحيرة. كدت أبتسم فوأدت بسمتى... شجعتنى أن أنظر، وأتأمل، ولما طاوعتنى عينى لمحت ثوبها ينحسر عند الصدر.. وبدا كأن يدًا خفية تسحبه فى خفية... حتى إذا لاح لى غضضت بصرى...

وحين ضحكت فى مماطلة، هويتُ به عليها فهمست

- أوجعت بدنى

واحترت كيف أرد، فظللت رانيًا إلى الذى يتكور فوق الصدر كرمانة ناضجة.

- من يداويه!

وزامت فى تهويمة كما تزوم قطة وهى ترى قطًا يقاربها.

مدت يدها وشدتنى

- أنت تداويه

وباغتتنى رعدة هزتنى... وطافت بذهنى لامعة كالبرق صورة أبى وهو واقف على عتبة الباب يدق بعصاه...

نترت نفسى مرتجفًا وأنا أنظر حوالى، رامحًا نحو الباب وأنا أردد.. أبى.... وتضحك فى إمالة صوت منغم:

- أبوك فى طنطا

وأندهش كيف تعرف بسفر والدى وأنا أجهله.. وكيف زاحمتنى صورته كأننى أراه عيانًا...

تسقينى شرابًا بطعم العنّاب وتأخذنى صاعدة بى إلى السطح أساعدها فى تبييت الدجاج.. وقبل أن تطلقنى أكون قد أكلت بيضتين، وأخذت تعريفة وملبّسة..

وتمتد يدها، تفرك أذنى

- أقطعها لو حكيت لأحد...

وتهتز ضاحكة:

- غدًا... فى العصر تعال لتأكل المشلتت مع صاحبك...

وحين آتى فى موعدى أراها تنهض عن سجادتها وتتملى نفسها فى المرآة... ولا أجد صاحبى...

ظللت أتردد عليها حتى وجدت يومًا بصحن دارها رجلاً كنت أراه يلعب السيجة أمام المسجد بعد صلاة العصر...

أخبرتنى أنه سيتزوجها على كتاب الله وسنة رسوله..

وقبل أن تغلق الباب ورائى... حذرتنى من المجئ مرة أخرى...

... غامت الدنيا فى عينى... وراحت تلاطمنى...

كنت معها أحس أننى أحيا... وأن أحدًا يتلهف علىّ، وأننى مرغوب...

وكان شعورى تجاهها مختلطًا بين الأمومة وبكارة الصبا...

ولزمت الدار أيامًا لا أخرج ولا أكاد أطعم شيئًا.

تعجب والدى، ثم ضاق بى، وظلت زوجة أبى تناوشنى... وتخادعنى كى تعلم ما بى... لكننى حفظت سرى وقبرته داخلى..

وها هو يعود بوجهها المسلوخ ويدها المحترقة... وينكأ السرداب المملوء بالخوف...

...... تهب فزعًا، يستعصى عليك النوم والجلد المحترق يتبدى أمام عينيك ويجلدك...

يأتيك نباح الكلاب من الخلاء البعيد ويخترقك عويل كأنه الندب على الموتى، يأتيك متقطعًا من خلف الجدران النائية حيث تتراكم النفايات.

أنبأك الأولاد فى الصباح وأنت تسألهم... أن بنات آوى يمرحن فى هذا المكان ويظللن ينتحبن كأنهن فقدن عزيزًا عليهن...

ويبدون فى ترجيعاتهن كما لو كنّ يلتقطن أرواحًا هائمة ضلت رجوعها إلى مقابرها، فظلت تطلب دفنها وسترها... ثم يغرقن فى صمت مريب..

يوقظ الصمت الراكد فيك، وحولك شعورًا بالخواء... خواء بدأ يعتريك، يفقدك انسجامًا سعيت أن يتحقق.. وأنت تجاهد أن تدخل فى منظومة الكون حولك... ما الذى أفرط العقد وأخل بالنظام؟.. أهو البعاد الذى أوجع القلب وأرهق الخيال... فاستنمت إلى الرتابة وغابت عنك لغة الحلم!!

***

حفل اليوم المدرسى بنشاطات متعددة، كان من أهمها الكلمة التى ألقاها الغامدى على الطلبة فى طابور الصباح بمناسبة اليوم الوطنى... أشاد فيها بالأمن والأمان الذى تنعم به ربوع المملكة، والعدل والميزان القويم الذى يساوى بين الناس جميعًا. وأكد فى كلمته على أن الحكومة – رعاها الله – والقائمين على شئون الأمة، لا يألون جهدًا، ولا يدخرون وسعًا لخدمة الأمة،

والسعى الدءوب لتقدم البلاد إلى الغاية التى يتغياها الوطن ويتمناها أبناؤه... وهم حريصون على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله فى منهاج سياستهم وحكمهم.. إنهم يبذلون فى سبيل ذلك كل الإمكانيات المتاحة لتأدية الأمانة على خير وجه وللتمسك بصحيح الدين.. وترك البدع ومجاهدة البغى..

ولوح الغامدى بيده، وأخذته حدة مباغتة وهو يردد فى سرد طويل الإنجازات الكبرى التى تمت فى مجال التعليم وحرص المسئولين على إشاعة التعليم فى أرجاء البلاد.. أطرافها وقمم جبالها..

ثم علا صوته وبدا كأنه يصرخ وهو يردد عبارة أبى بكر (.. إنى وليت عليكم ولست بخيركم..)

وراح يرصد مواقف الأمراء والأسرة الحاكمة التى ما وضعت يومًا حاجزًا بينها وبين المواطنين.. "فلا غرو أن يلتحموا مع الناس فى نسيج واحد وهم الذين يرفعون القرآن دستورًا للحكم والعدالة شعارًا سائدًا بين الناس مصداقًا لقوله تعالى (..وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل..)..

... توالت الكلمات، والقصائد... وتقدمت الصفوف بيارق وأعلام المملكة، ثم بدأ الطلاب فى ممارسة أنشطة رياضية متعددة ، فقامت مباريات فى كرة القدم، والسلة، وتنس الطاولة... ولتنامى الشعور بأن اليوم سينقضى فى الاحتفالات، قام المدرسون الوطنيون مع الطلبة بتقديم رقصة "العرضة" التى لقيت استحسانًا كبيرًا من الجميع، وأثارت عددًا من المتعاقدين وهم يشاهدون الإيقاع الحركى المتزن، فى مصاحبة لشعر نبطى (شعبى)... قصير التفعيلة تُواكب سرعته وإيقاعه سرعة الحركة، وخبطات الأرجل الموقّعة..

... اشترك صابر فى لعبة البنج (كرة الطاولة). فهو يجيدها منذ أن تعلمها بالمرحلة الإعدادية.. ولاح إنجازه واضحا وهو يناوش الطلبة حتى تصوروه أحد أبطالها..

كان قد شاهد الحفل مع هيئة المعهد وطلبته مسئول التعليم وبعض الإداريين بالمنطقة، ولاح "مختار" بينهم بحكم عمله موجهًا للاجتماعيات ونهض وارتجل كلمة موجزة عن بداية الحكم السعودى، وكيف استطاع الملك عبد العزيز أن يوحد البلاد فى بناء متماسك بعيدًا عن التعصب والقبلية.

وفى هذا اليوم – أيضًا – قدم سعيد الموجه بالإدارة تدريبات كشفية أبانت عن مهارات الطلبة فى الاعتماد على النفس.. ومواجهة الخطر، وكيفية التعامل مع الموقف المفاجئ..

أثنى المسئول على ما رآه من أنشطة ومضى مشيّعًا براحة حقيقية شعر بها العاملون جميعًا..

.. توافد المدرسون إلى حجرتهم الواسعة، يستريحون قليلاً، ويتسامرون ويحتسون الشاى..

الحجرة واسعة.. تقع بالدور الأول، نوافذها مشرعة، ومكاتبها من الصاج الملون... وأرضيتها مفروشة بالحصير الملون.. تعلوه قطع من أكلمة منسوجة من الوبر.. والصوف.. ملساء، خالية من الرسومات، إلا بعض الدوائر والخطوط المتقاطعة..

.. كان الزملاء من السودان، والعراق، وفلسطين، وسوريا، يمسحون وجوههم بمناديل ورقية، ويتخففون من نعالهم، ويحررون الجلاليب

والقمصان من الأزرة الضاغطة على العنق أو الصدر.. وجاء حديثهم قليلاً يتناول بإيجاز أبرز ما حدث فى الاحتفال...

وضع "عامل الشاى" صينية من الألومنيوم اللامع ورص فوقها عددًا من الأكواب الصغيرة على هيئة دائرية وفى الوسط ازدهى البراد ببخاره الصاعد، وعيدان الريحان الجبلى تتدلى من قبضته لمن أحب الشاى برائحته.

وكانت الشمس ترسل جذاذاتها اللاهبة عبر النوافذ المفتوحة فتحيل هواء الغرفة إلى سخونة رطبة لزجة لم تفلح مروحة السقف من تخفيف حدتها، أو تلطيف الهواء فيها.

... كان صابر جالسًا على مكتبه ينظم أوراقه ويتابع فلتات الأحاديث إلى أن دهمه صوت "محفوظ" الفلسطينى وهو يرتشف الشاى فى شفطة ممطوطة زاعقة.

حين رفع رأسه وجده يحدق فيه بقوة حتى خال عينيه خرجتا من مكانهما.. داخله هاجس مبهم، وطفا إحساس بالمرارة شمله، وتيقن أن الخبث وسوء النية يطلان من النظرة المحدقة والتى سرعان ما تحولت إلى بسمة ماكرة.

قال وهو يركن الكوب فى خبطة أحدثت صوتًا وأراقت قطرات من الشاى:

- استمعنا إلى كلمتك فى الصباح.

فوجئ فقال فى عجلة:

- لكننى لم أقرأ شيئًا... أم أنك كنت غائبًا..

قبضت يده على الكوب ولاحت أصابعه ترتعش..

- تريد أن تُعلمنا أن الغامدى يكتب بمثل هذا الأسلوب، وهذا الترتيب.

علق السورى فى خفة كمن لا يهمه الحديث..

- المسئول نفسه يعلم ذلك... الأمر عادى..

عاود محفوظ النظر فى استخفاف ومراوغة.

- على العموم الأسلوب جميل... والكلمة تُعلى من قدرك.

أدرك السودانى – بلباسه الوطنى الذى لا يتخلى عنه – أن "محفوظ" يتعمد الإثارة، والإساءة.. ويخشى على مكانته عند الغامدى. فهو يدرك تمامًا أن مثل هذه المناسبات وما يقال فيها... يُحسب لأصحابها..

شمر كم جلبابه حتى الكتف وقال:

- أنت يا محفوظ.. ألا تقدم له الكثير..

ابتسم له لكنه واصل

- أين دروسك الخاصة للأولاد.

وقضاء المصالح لهم... بلا مقابل..

أشاح محفوظ بيده لكنه تابع فى إصرار

- ألا يغلى ذلك من قدرك..

أليس ذلك سببًا فى بقائك كل هذه السنين فى هذا المنفى!.

انفلت العراقى مشدودًا... وعلق فى غضب بدا كأنه مفتعل.

- خففوا الحقد قليلاً.

الكتابة موهبة

وهو يتوارى من فتحة الباب.. أطل برأسه

- ما دخل صابر فى هزيمة ٦٧

خبط محفوظ بيده، ولوح فى قوة فأراق الكوب.

- أضاعونا.. والله بالكلام

شعر صابر بضيق شديد، وهو الحريص على الابتعاد عن الحديث فى أمور تثير الهم، وتأتى بالخلاف، وأدرك أن محفوظ يستدرجه للوقوع فى الخطأ.. ثم استغلاله للإساءة إليه.. لكنه مصرى، يزهو بمصريته.. ويحب وطنه، وإن كان يكابد مرارة الهزيمة.. ويدين السلطة الحاكمة، وعزلتها عن الشعب وخداعها له، وقمعها لإرادته... إلا أنه يرفض التشفى وإن جاء ممن رهنت مصر قدرها بسببهم.

صوّب نظره فى قوة وقال فى بطء مقصود

- لا يحارب شعب بالنيابة عن شعب آخر..

وآن لكم أن تفعلوا...

عقب السورى فى تفكه:

- ولا بالوكالة!

ضحك السودانى ملطفًا لجو الجدل

- لو كان الأمر بالوكالة لبادر الغامدى إليها.

ورن صوت عال، آت من ركن الغرفة

- قادر عليها والله..

مشت الضحكة حتى وصلت إليه فضحك.

كان عامل الشاهى فى مكانه يتابع ما يجرى من أحاديث ويصوب بصره تجاه محفوظ كلما هم بالكلام، فاتحًا عينيه كأنما يحثه ويستزيده...

وتهيأوا للانصراف.

... حين جهز صابر نفسه لمغادرة المكان، وجده واقفًا أمامه، يرمقه في إطالة رانية. أهمله ونهض... فاحتجزه بكفه وقال..

- تتشاهى...

ود لو رفض، لكن لم يمهله فصب الشاى الأصفر في الكوب وأحدث رغوة مفضضة.. صب لنفسه كوبًا آخر.. واقتعد مقعدًا مجاورًا.

- الحرب خربتكم

أومأ برأسه ونطق في همود..

- إنها الحرب..

أبرقت عيناه

- فعلها عبد الناصر ومات..

انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء متلومة..

- طردوكم علينا..

أصابه خرس مفاجئ، وقبض الذهول على وجهه، وظل الكوب معلقًا في يده وهو يتابع العامل في حديثه السام..

- بالله نحن أولى بالمال منكم

وتلفت العامل يمينًا وشمالاً... وعاود الحديث وهو يصب الشاهى

- نعم.. نحن أولى به..

راح يتحدث عن حاجتهم إليه، وأنه يقوم بعمل تربوى هام وهو تعليم الأولاد.. وتدريبهم ليتخرجوا معلمين... سيحلون يومًا محل المتعاقدين.. وأن الناس في بلاد الدنيا يتبادلون الخبرات، ويستعينون بالكفاءات ليعملوا لديهم.

وليس في ذلك عيب.. والله خلق الناس أممًا وشعوبًا ليتعارفوا.

جمع الأكواب، وأعاد رصها فوق الصينية، وبان عليه غضب لوّن صوته بحدة.

- أنتم تأتون لتاخذوا أموالنا.. نحن أحق بها منكم.. ألا تفهم!

ود لو أحكم قبضته على عنقه.. أو أخرج لسانه من فمه.. فكواه ليظل عاجزًا.. لكنه يلتمس له العذر، فلهجته تبدو كشكاية، أو توصيف حالة.. افتقدت موافقة الحال.. والدراية بآداب الخطاب.. يصبح الأمر قاسيًا لو انطوت القلوب على هذا الشعور العدائى..

- نحن والله أفقر منكم

يضيق صدره به.. لا حياء ولا مراعاة لمشاعر.. لعله يتصور أنه يتقاضى راتبًا كبيرًا، إن راتبه يكاد يقاربه..

وكأنه استراح فراح يهتز فى مشيته، ويعدل من غترته المعتمة.. وينسحب ناحية الباب..

***

... وأنت تطوى الدرجات طيًا كأنما يدفعك جنّى عفى.. ويأخذك الخلاء بعيدًا، نائيًا عن معهدك، تاركًا وراءك سهامًا مسمومة.. وقلوبًا فاسدة..

تدب رجلاك بخفك الجلدى على أديم الرمل، وثبج الملح يعلو كفتافيت الجير المطفى.. الرمال أمامك، والمعهد خلفك، ولم يعد يسعفك إلا الوجه الذى يفرش النور عليك ويسكب الهوى منوّرًا.. ينطوى الأفق على مرآه فيأتيك طائعًا.غزاك واستكن فيك وأدمن الإدماء بالهوى.من أجلها أتيت، ليلك الطويل كهف معتم... تراوغين وأنت تتبدين فيه كنجمة سماوية.

تناوشك برفة العين، تراها وهى تطوح بكفها فترى خاتمك ضاويًا يبعث الألق.. تسرع نحوها، فتمعن راكضة، ما الذى يدفعها إلى النأى والبعد عنك؟ تجرى وراءها صائحًا... سجّانتى...

كيف طاوعك القول فبدوت ضعيفًا، وهشًا، وهى التى قطعت المسافة إليك رهوًا...

كنت تسبلين عينيك، وتشرعين رمشك، وأنفك الرهيف يرتعش، وتجأرين.

- سجانى الذى نأى وابتعد.

تلك سفرتى، فخذ قلبى معك.

كان قلبك الريان يفتح السدود للمياه لتنهل الزنابق وترتوى... لكن الرياح تهب، تسفى من أمامها الرمال والنخيل والقلوب الموجعة.

وها أنت محاصر.. ومتهم...

ينظرون إليك نظرة الذى ينتهب...

فأنت الآن تسرق مالهم...

وتخطف أرزاقهم...

***

أصابته رعشة قوية... حتى خشى أن يكون أصيب بضربة شمس... أحكم نظارته الشمسية..

تأخرت عودته... وما يزال قول الرجل (نحن أولى به...)

يرن فى مسامعه.. والوجه الخبيث يتراءى له، وينز منه خبث مسموم...

كاد يوقن أنه مدفوع من محفوظ.. لم يبق إلا الرواح...

البيت مبتغاه... حاضن همومه، وساتر أحزانه.

أخذته قدماه حتى انتهى إلى رأس الشارع الضيق الذى يصله بمسكنه..فى التفاتة سريعة رأى امرأة أسبغت عباءتها تسير فى هرولة، وصدرها البازغ يدفعها إلى الأمام.. كأنه يقودها.

تباطأ فدنت المسافة..

نحيلة القد، الوجه سافر إلا قليلاً. حين اقتربت أحكمت حجابها.. رأى عينين محددتين برمش أسود طويل وبؤبؤين يبرزان فى توهج.

فاحت رائحة زكية، فانتعش.. تريث قليلاً وتنفس بعمق.. صدرت منه كلمة "الله" دون أن يدرى، أسقط قلمًا وانحنى يلتقطه... تجاوزته، ثم تلفتت، خيل إليه أنها تبتسم، أدرك ذلك من حركة العين ورعشة الجفون.

شدت الحبل بباب البيت المجاور.. ودخلت.. أتكون هى صاحبة الصوت الجائر.. المتمرد! أتكون هى!

***

كانت الأرجل تضغط بقوة على أديم الأرض السبخة.. والكعوب تغوص.. فى البلولة، والأصابع تخمش وجه الرمل، والأيدى تقبض على الحبل المبروم الذى يبدأ منهم وينتهى فى ماء البحر... جذبهم الخلاء والماء والقمر الزاهى فى تمامه، والرغبة فى الصيد وسماع الأغانى.

لم يكن الأمر مثيرًا.. كثيرًا ما شاهد حفل الصيد ليلاً أو وقت الغسق.. تنحّى "صابر" واقتعد نتوءاً على حافة اللسان وراحت عيناه تتأملان انكسارات

الضوء السماوى على تموجات المياه.. وأذنه تلتقط همهمة الشفاه، ودبدبة الأرجل..

فجأة ارتخى الحبل ثم انخطف خطفة قوية فسقط البعض وتشبث آخرون به، دافعين أرجلهم إلى الأرض التى تسوخ تحتهم، وجاذبين الحبل بما بقى لهم من قوة... لم يمر عليهم موقف كهذا من قبل... ولم يستعص عليهم صيد كهذا الصيد.

كاد اللهاث يأخذ صدورهم.

زعق صلاح فجأة وقال: عندى الحل.

جرى ناحية "دبّاب"... ممدوح الفلسطينى، مدرس التربية الرياضيةالذى لا يكف عن الصيد.

أداره واقترب به، طالب الممسكين بالسنارة الهلب أن يحكموا قبضتهم من الوسط. عقد الطرف بالدباب وأحكم عقدته ثم ركبه وانطلق. ضغط على البنزين فقفز من "غرزة" أعاقته وجر خلفه الصيد الثمين.

بدت فى مساحة الرؤية رأس ضخمة لنصف سمكة..

تنزف الدماء وترتجف رجفتها الأخيرة.. كان القرش قد التهم نصفها الأسفل، فغطت الدماء سطح الماء...

علت الصيحات، وتهاوت الأجساد، وكف "الدباب" عن الهدير.

قام "ممدوح" وعلق نصف السمكة من خيشومها فى عمود من الخشب.

كان الليل يوغل، والقمر يتجلى بهاؤه، والأيادى تملأ الكيزان، تسكبها، فبدت نظيفة لامعة جاهزة للإعداد...

أضاء "الإتريك" المكان ووزع ضوءه، شبت النيران فى الأعواد الجافة ومشت رائحة الشواءحتى طافت بالخلاء فتداعت القطط والكلاب وهوام الليل...

قبض مختار على يده وأنهضه.. جلسا على جرف اللسان. امتدت الساق ولامس القدم وجه الماء..

قال مختار وعيناه تتسكبان فوق حصيرة المياه الهادئة.

– صيد السمك غية..

وراح يحدثه عن هوايته القديمة التى أخذت منه وقتًا طويلاً وممتعًا... وعن الفضائل التى خرج بها كالصبر، وكظم الغيظ، والتمسك بالأمل، والرضى بالنصيب..

– يعطى بسخاء.. ويضن بقسوة.

... كانت وقفته غالبا على كوبرى عباس ناحية الجيزة... يحضر معه ديدان الطعم، والسنارة ذات الغابة اللينة، والحبل الحريرى الرفيع والغمازات المربوطة على مسافة قريبة من الشط.

والكيس الورقى الذى يضع فيه صيده..

يظل حتى ساعة متأخرة من الليل، يستقبل الهواء المنعش بنكهة الطين والعشب. تروح عيناه تتابعان المارة، وتحدقان عندما تميس البنات بقدودهن "فينتر" السنارة بجذبة قوية تجفل لها البنات.. ويرحن فى موجة من الضحك.. ذات مساء اقتربت منه فتاة أدهشتها وقفته الدائمة، وسنارته المغموسة فى الماء. سبقها صدرها وهى تستند على السور الحديدى.. تقلص النهدان وبرزا.. قدم لها الغابة، وبدأت يده تدربها.. كانت أصابعه تتلامس مع كفها وجلدها...

... خرجت منه تنهيدة عميقة

– لم تكف عن المجىء... كانت تسكن فى البحر الأعظم.

فى ليلة ساد القمر سماءه فتجلى.. جاءت...

لم يعول أحيانًا على غيابها فى الأيام الأخيرة.. لكنه يسعد حين تأتى.. ويؤلمه أن يبقى المقعد الصغير خاليًا من جسدها ووجهها المريح.. كان قد تعود عليها.. فلما جاءت عادت الروح إليه..

هذه الليلة لم تجلس.. ظلت واقفة، عيناها تتراوحان بين الوجه والماء، تأخذها أضواء السفن المنسكبة على سطح النيل ثم يتعلق وجهها به..

لاحظ سكونًا يشمل الوجه ويقبض على الملامح..

تضاحك وهو يخرج سمكة صغيرة من كيسه الورقى..

أدارت رأسها وطفرت دمعتان حرصت على إخفائهما.

قالت: - جاءنى عريس.

ضحك ثم لزم الصمت.

لم يكن الأمر يشغله، فهو لم يفكر فى الارتباط بأحد.. لكنه شعر معها براحة حقيقية. تطول الليلة التى لا تجيء فيها حتى ليخشى ألا يطلع لها نهار.

حين استعاد كلامها أحس برجفة.. وقف مبهوتًا جامدًا كأنه تمثال، وغاصت عيناه فى الماء، والسمكة تلتهم الطعم وتغوص به، وتفلت.

وصديقته تعدل ثوبها، وتسوى شعرها.

ابتسم لها ونطق: - أخيرًا... غمزت السنارة.

مد يده، فمدت يدها، ودمعت عيناه.

- حين أدارت ظهرها لى التوى قلبى وكففت عن الصيد.

أخذته هزة من قام من غفوة مباغتة... وقال..

- البحر يثير الوجع.

***

أخذك الهوى إليها، فقفزت قفزتك ورسوت.. على الأعتاب وأنت تطوى عمرك فى يمينك، والبحر خلفك.. مددت يدك، وكأنها توقعت مجيئك فازّينت. أسدلت شعرها، وأسبغت رائحتها وانطوت فى يدك.

ومضيت..

لم تكن تعلم – تماما – وجهتك، لكنك رأيته وأنت تسير معها على كورنيش النيل قريبًا من الكوبرى وتماثيله.. رأيته قابعًا بانسيابه الخشبى وغطائه التيلى.. شددت يدها.. ونزلت.

تشتت الماء رذاذًا فطال الوجه والعنق وبلل الثياب، ترعشها لسعات الماء المتناثر وترعشك.

شفتاها تنفرجان، وتتقلصان. عيناها تتغلقان وتتواربان، شهقتها تكاد تطيح بك فى اللجّة... والعيون حولك تحسدك، تتخاطفك كأنك الوحيد الذى تلبد فى صدره بنت!.

يمخر اللنش مياه النيل.. ولا تعرف الاتجاه.

تصورت أنك ستدور دورة أو اثنتين حول جزيرة المنيل وتعود.

لكن اللنش مضى... ميممًا شطر القناطر، مصحوبًا بالزغاريد، والموسيقى العالية، وأغانى أفلام الحب.

تخطف البنت قلبك وهى تحيطك بذراعها ويداخلك صدرها... تفرد الساق، والذراع.. تبسط أصابعها كى تطول الماء.. وتعبث به.. أو تحفن منه على وجهها..

كاد الموج يخطفها فنهرتها... وأوجعت قلبك.

وأنت تواجه غابة الله الجميلة فى القناطر.. شد بصرك أن الحدائق تطوى أشجارها، وترسل أوراقها وطعم أعشابها على شباب تطل الفرحة من عينيه.

شدتك الجلسات الثنائية، بانحناءاتها...

لكنك إن جلست فستصبح هدفًا للعيون المتلصصة.. وسرت متعجلاً كأنك تعدو... وهى بجوارك.. تطأ.. وجه الكلأ كأنما تطأ قطعة من القطيفة الموشاة.

جذبك المقهى الجميل فجلست..

المقهى مظلل بأشجار باسقة، ملونة أوراقها، تحف به المياه حتى تكاد تخرج لتلامس الرواد...

خطفتك عيناها المصوبتان إلى الجانب الآخر من المقهى... كان عدد قليل يمسكون بأدوات الصيد، ويقفون منتظرين..

لاح الشوق باديًا..

أحببت أن تذكيه، على لمسات الأصابع وانسياب الماء.

دبّر عامل المقهى سنارة وطعمًا...

جاورتك ملتصقة، وشعرها الذى ظل ينسكب على وجهها لمته فى زمة واحدة، وراحت تتكئ على كتفك وتنتظر.

أخذك الضحك، وأخذها فهمست فى أذنها

- سنفوز بصيد سمين.

تغريك بسمتها، ورنو نظرتها المتسائلة فتقول جادًا.

- سترين الآن سرب البلطى.

تدير رأسها وتستند، تصدقك وتنتظر فتنتظر بانبهار.

- ضمنت غداء مجانيًا.

تحرك السنارة، وتخرج الشص، وتتأكد من الغمازة، وتطمئن على الطّعم.. ثم تغير مكان الصيد.. وأنت خجل من السمك الحرون، الذى بدا يعاديك..

صاحت زاعقة كأنما تعترض

- نصف ساعة ولم أر بلطية واحدة..

ولأنك سريعًا ما تتوجس، ظللت تردد أن السمك رزق، وأنه علامة على تحقيق الأمل، والسمكة فى اليد زوجة صالحة والميّت من السمك ينذر بعاقبة وخيمة... أحسست أنك محاصر بنظرتها الماكرة التى تقول - أنها لا تصدقك..

فأسرعت تقول:

- وصلتنى رسالة من تحت الماء..

تهلل وجهها بشرًا، ورفعت يديها عاليًا..

نترت ساقيها فى حركة مباغتة حتى كادت تسقط.. خطفتها من وسطها، وضغطت عليها فاستكانت لك..

- خبرنى..

ظلت تنظر إليك بشوق وأنت تتمهل فى اختيار الكلمة.. عينها تتسع حتى تحتويك.. وتأخذ معك الماء، والسمك، والشجر...

- تقول الرسالة: إنك استغنيت.

فابتعدنا

ضاقت نظرتها فلم تبصر سواك..

تعلقت الدهشة بالهدب الطويل، وانفرد وجهها كله...

ولذت بالصمت...

اغتاظت، فمدت إصبعها وغرزته فى صدرك..

فآلمتك.. ما الذى ورد على ذهنها فحمل بنانها هذه الحدة الحامية كأنما هو شوكة مدببة..

- خبرنى.

- تقول الرسالة:

معك البلطية... سبقتنا إليك

أغراها طُعمك.. وفتحت لها قلبك..

فدخلته وتمكنت!

أمالت الأشجار أغصانها، وأرسلت أوراقها تدور حولها، وبثت، الزهور عطرها وقطفته باقة لا مثيل لها..

وهى تزدهى تيها، وتشمخ...

والموج تحت قدميها يخف ويصطفق

وراح السمك الصغير يرمقها بعيون مفتوحة وملتمعة..

ثم حرك زعانفه، ومرق راقصًا، وانسل نحو اللجة العميقة.

***

... انغرز فى كتفه إصبع حاد فجفل... واندهش..

قال مختار متعجبًا:

- أفق...

اجتاحته هزة من قام من غفوة مباغتة..

... كان مختار قد لمحه وهو يطوف باللسان الممتد فى صدر البحر بعيدًا.. يحدق فى الأجساد المرتخية ويرتجل الأحاديث معهم، والأصابع تدس قطع السمك بشرائح الطماطم والفلفل الحار فى أنصاف الأرغفة.

هز كتفه ووجّه همسة عالية إلى صابر..

- انظر.

شمله بنظرته، ورجح أن يكون الطالب الذى رآه ينسحب من حجرة المدرسين بالمعهد يوم الاحتفال باليوم الوطنى.

مال بجسده كله كأنه يتساقط. سلم عليهما.. ونازعته نفسه أن يجلس فادّعى مختار أنهم يزهمون عليه هناك.. نزع غترته وسواها ثم وضعها على كتفه.. بدا شعره غزيرًا وطويلاً حتى غطى أذنيه وستر القفا.

أمسك صابر بحصاة وظل يفركها، ثم رمى بها بعيدًا.

أشعل مختار السيجارة الخامسة، ونفث الدخان فى صوت مسموع وقال مندهشًا.. ومعقبًا..

- لعله يبحث عن خلّ جديد.

لم يدرك المعنى.. فنظر إليه صابر متسائلاً..

- من تقصد؟

رفع يده وأشار إليه..

.. كان كاظم العراقى مدرس العلوم فى المتوسطة.. قد ارتبط بالطالب بعلاقة مكينة، حتى شاع الأمر، وخاض البعض فى السيرة الخاصة... ثم اعتاد الناس الحكايات المتشابهة فقل الاهتمام، واستحالت العلاقة إلى عادة تعوّدوها... فلم يسألوا... أو يتساءلوا... وجنحوا إلى الصمت.

فى دورة تفتيشية أومأ إلى الحارثى مدير المدرسة أن العلاقة سلوك خطر، وقدوة سيئة، لا تقاوم بالصمت، أو التجاهل.. وأن ردود الفعل المسلكى يوحى بالغواية، ولا يدعو إلى المغايرة.

– قلت له فى حدة أنه سلوك منهى عنه دينًا وعرفًا.

لكن الحارثى غضب، أربدّ وجهه فى انفعال حرص على كتمه وقال

– ليس لى عيون بعددهم

وقبض على كم جلبابه يعتصره

– للصحراء قاموسها المسلكى..

رفع يده ملوحًا باتجاه مصر

أنت لم تدرس الصحراء "زين"... ولا تعرف ناسها...

مسك فى توتر... فنجان القهوة فاهتز.. وانسكب

رشف رشفة ممطوطة وعيناه ترقدان على مختار

– كيف حصلت على الشهادة إذن!

.. حين جلس مختار مغيظًا وصامتًا، عادت إليه طبيعته فابتسم وقال..

– الأخلاء.. درجات.

ثم صاحبه فى جولته..

قال الحارثى وهما يجلسان فى حجرة الإدارة

– أرأيت كيف تبدو حالتهم؟

هل يستطيعون الزواج فى ظل وضعهم هذا؟

ونظر إليه وكأنه ينهى حديثه

– لهب الصحراء، والبلوغ المبكر، والعوز الشديد، وغلاء المهور.. أسباب حاكمة

نطق مختار فى قوة وهو يعقّب على الحارثى..

- ولو..

ومع أن الموقف مضى عليه عامان، إلا أنه بدا وكأنه يعيش الموقف نفسه، الوجه المنقبض، والأسنان الطاحنة.

... أراد صابر أن يخفف عنه فكرر لازمته التى يرددها كلما اعترض على أمر.. وصاح "ولو"..

- فى آخر العام تزوج الطالب

- ولو!

ضحكا حتى ارتجا..

الغريب - كما حكى - أن صحبتهما ازدادت نموًّا وتواصلا..

لكن وجود الزوجة مثّل عقبة كأداء، فلا التقاليد تسمح، ولا الدين يتجاوز عن مبدئه، ولا أهل الزوجة يترخصون فى الأمر.. فعادت الشكوك تطل من جديد.. حتى طالت الولد وزوجته.

وقبل أن يكتمل العام الدراسى فوجئت إدارة المدرسة بتغيّب المدرس.

كف عن الذهاب واحتار فى أمره المحيطون به.. انشغل المتعاقدون زمنًا، حتى نسى الجميع الأمر، وحل صمت مريب، وأضحت السيرة جالبة للهم، وواشية بغضب الناس..

ألغت الإدارة عقده آخر العام..

لكن الولد ابن عم الزوجة راح يشيع أنه فر إلى البادية البعيدة حيث الجبال الشاهقة والكهوف الوعرة وحصباء الرمال الحادة..

كان الناس يسمعون، يحدقون، ويصمتون.

... ومختار يلفظ من فمه حصاة ظل يلوكها، ويعلو صوته فى نبرة مسرحية.

- يا له من أمر مخيف!!

***

شعر بالوحدة تجرى فى جسده وتمص دمه كدودة العلق، وتتركه هامدًا لا حركة فيه. ما الذى جعله يتخلف عن حفل الشيخ فلاّته فى مضارب القبيلة؟ كان قد مر بالمعهد داعيا الجماعة إلى عرس نجله الذى تخرج قبل مجيئه بعام.

سحنة داكنة، لحية بيضاء مدببة وعين منطفئة..

يشى.. الوجه الداكن بطيبة حقيقية.. يجذب الرّائى إليه ببسمة دافئة، ووداعة تتفرد على ملامحه.

... قال الغامدى وهو يقدمه إليه:

- كأنه من جماعتكم فى الجنوب البعيد..

مد كفه اليمنى وابتسم

- قل.. إفريقى قديم.

تتعدد الجنسيات فى الجنوب وتتداخل من زمن بعيد.

لا تخطئ العين سحنة الأفارقة واليمنيين والترك، والهنود والباكستان..

ينفتح البحر والخليج على أماكن مختلفة، وبشر مختلفين، جاءوا هربًا أو غزوا أو تجارة. تخلفوا، أو استقروا ومضت بهم الحياة.

... قبل أن يمضى ذكّره بأن الوليمة فى مضارب البادية لها طعم جديد.. ومميز، لكنه بادر فاعتذر، فصمت قليلاً ثم حدق فيه بقوة.

– عيّن خير.. ستأتى مع جماعتك.

أدركه حنين إلى الانفراد بنفسه، فلم يصاحب "مختار"، و"صلاح".. وتخلف.. وراح يُطمئن نفسه... لن يفوته شيء كبير فكم من ولائم شهدها... وسعد بها..

... الليل طويل وضاغط، تآزرت عليه الرطوبة الثقيلة والحزن الشفيف الذى يغزوه كلما انفرد بنفسه. لم تسعفه السماء بنجومها اللامعة فى أفق الشمال، ولم تخفف عنه لسعة الغياب نغمات الموسيقى التى تتساب فى رقة مذابة تدلف به إلى غيمة الحنين... فيزداد حنوًا...

هيأ نفسه لاستقبال الوجه..

كان لا يزال يتأبى عليه فى الأيام الماضية. يشغله التهيؤ له فينسحب إلى الداخل، يتنفس بعمق، يسترخى قلبه، ويستجديه، يضن الوجه عليه بالتجلى ويخاصمه،.. لم يعد يناوشه فى جلسة الوداعة، والنفس مشغولة بعشق الوصال، وبالرغبة فى التسامى والارتقاء..

ما الذى شغله عنك فأوجعك؟..

ما أقسى البعد على النفس!

وما أتعس البريد الذى يأتيك على جمل يخوض أرضًا وحلة!

ظل يستجدى اللقاء، وينتظر الجلاء!

استعد لاستقبال الأجزاء.. العين، الخد، الشفة، الجبهة، الشعر المنسدل، الجيد المنحوت،.. ليصنع منها وجهه الغائب.. شد ضياء النجم فارتعش النغم،

وارتجف الضوء السماوى.. ركز ذهنه وراوغه.. هادنه.. كى يقتنصه، يقبض عليه، ويلج به إلى القلب فيسجنه.

أخرجه من إغفاءة التوقع صرير الباب...

انفتح الباب ودخلت منه امرأة أحكمت عباءتها وأسبغتها، وأرسلت حجابها على الوجه كله..

أخذته المفاجأة فهب واقفًا، ومغروزا كأنه عمود خشبى مركوز فى الأرض، لا شيء يبين منها، حتى كفاها استترا بجورب سميك..

عبرت الحوش حتى واجهته..

- أعلم أنك بمفردك

وأن صاحبيك ذهبا للوليمة.

اقتعدت كرسيًا وأضافت...

- رأيت الحوش منطفئا وضوء السماء لا يكشف أحدًا

فقلت: هو الوقت المناسب

تحرك ليشعل النور فمنعته

- هذا أفضل

اقشعر بدنه، وشملته رعدة تنفضه، وخشى أن تكون هناك مكيدة مدبرة، فكتم خوفه وراح يتلصص صوتًا أو جرمًا.. وهو يقترب من الباب..

عادت تحدثه عن الوليمة، وزوجها - حارس المعهد - الذى لا يترك دعوة، أو تنقطع له قدم عن ولائم الأعراس.

تماسك حتى يلتقط أنفاسه

- أنت حُرمته.

- نعم

تحركت فى جلستها، وطرحت حجابها..

نور السماء شحيح.. لكنه استطاع أن يتعرف على ملامحها.. العين ملساء، تنظر إليه بإمعان. بؤبؤها ساكن ونافذ الرؤية.. الحاجب رفيع كأنه شعرة فسمح للجبهة أن تجور على الوجه حتى أكلت العين فبدت كخرزة مثقوبة، الشفتان غليظتان وحين تنطبقان ترهصان بإغراء قديم.

أحس أنه يواجه امرأة داهية، فالتزم الحذر وظل نائيًا.

ونابت حركته عن قلق وتوتر يزداد كلما رآها مطمئنة فى جلستها.

قالت وهى تدفس يدها فى حجرها..

- لا تخف

ثم أردفت وهى تنظر إليه.. مبتسمة..

لا تجعل خيالك يروح بعيدًا

حدثته عما تسمعه من أصوات كلما خرجت إلى الحوش أو دخلت المطبخ، أو نشرت الأغراض، تحس أن عينا تتابعها، وتترصدها حتى أنها خشيت أن تخرج إلى الحوش بملابس خفيفة، يشغلها اهتزازة حطب السقف وكأن أحدًا يقتعد الجدار، ويزيح الأعواد وينظر..

فاجأته قائلة: - أيكون أنت؟

كاد يضحك ساخرًا، لكنه أسرع - خوفًا - ونفى ما سمعه، ونصحها أن تبعد عنها تصورات كتلك التى لا تحدث إلا فى المنام...

•• وجمت برهة وهى تتصيده وجلاً ومرعوبًا.

- ليس هذا مقصدى

أخبرته بما سمعته من ولد أخيها عن إخلاصه فى العمل، وعن خلقه الذى يمدحه الجميع، وبعده عن السوء... واكتفائه بما لديه، وصونه للسر، ودخائل الأصحاب.

أوشك أن يضحك، لكن نظرتها أخافته فكتم ضحكته وأردف

- ولد أخيك يبالغ كثيرًا..

قالت وهى تزيح المنديل قليلاً

- لهذا اخترتك لتساعد زوجة الحارس فى علومها..

عقب مبهوتًا:

- الزوجة الجديدة

طوحت بيدها:

- هى نفسها... ضرتى..

تساءل فى دهشة:

- طالبة بالمدرسة؟

- بالمتوسطة.. السنة الثانية.

لم يقو على مواجهة العينين المثقوبتين فأدار رأسه..

- ولماذا لجأت إلى..؟

نهضت... فبدت طويلة نحيلة... وانحسرت العباءة حتى الخصر.

خطت خطوات متمهلة – كأنها تقصدها – باتجاه المطبخ ثم عادت.

ابتسمت فى إدانة..

- كأن جنيًا يتلصص علينا

انكمش مرتعبًا، حين راحت تكرر حديثها عن العين التى تتابعها من وراء جدران المطبخ، وخاف أن تقصده... فلزم الصمت.. رآها تخرج علبة سجائر، وتتمهل فى إخراج واحدة، فقدم لها الكبريت، أشعلت السيجارة فى نهم واضح.

– أعلم أن جوارنا "رجاجيل" يدرسون للبذورة.. لكنهم متزوجون..
تركوا حلالهم فى بلدهم..

وضحكت فى هسيس صوتى مثير

– هم خبراء ولا يضيعون وقتًا..
أما أنت فطيب... وخام.. وأثق فيك..

•• يجتاحك شعور ضعيف وواهن ينز منك.. أنك ابتعدت عن وجهك الجميل، وكدت تطرحه خلفك، وتمتهن طهارته وأنت تستمع إلى المرأة التى لا تخجل وهى تقول لك: أريدك لها، وتبين عن شفتين حادتين ولسان يخرج ويعود مع حركة الكف... وهى تريدك أنت... أى خلط عقلى.. تحدثك به المرأة الهلوك وترميك فى هوة سحيقة لا قرار لها.. تسلط عليك أفاعى الحس، وثعابين الهوى فتحاصرك.

تضعك فى ركن ضيق وتضغط عليك..
إما أن تقبل، أو تدبر لك مكيدة.. ما هذا الغياب الذى أنت فيه!
يأخذك الخوف، والعجب معًا..
عاجز أنت عن مواجهة حقيقية..

حين يأتى الحديث عن النساء فى هذه البلاد النائية فلا مجال لمبررات أخرى.. الموت أو الطرد.. ولا طريق آخر إلا الوأد..

وكفاك ما أنت فيه.

هذا البيت ينطوى على أسرار وحكايات.. لن تنسى ما حييت نظرة الرجل وهو يحادثك عن عبد العزيز، وامرأته.. حتى إنك تستشعر أنه فاعلها. حدسك يقول ذلك.. ويقترب بك من التصديق.. ترى هل تقوم امرأته الكهلة معك بدور مشابه؟

لم تستحي وهى تقول لك في صوت مغناج.

– أقودها إليك..

المرأة الطاعنة... ماذا تريد منك بالضبط.. تبتزك!.. أو هى مسلطة عليك لأمر لا تفهمه أنت...

ما هذا الغياب الذى أنت فيه!

•• وكأنما خرج من جب غويط فقال فى صوت حاد

– كيف أدرّس لامراة!

تعجبت من صرخته فأشارت أن يهدأ

– كما تدرس للولد... أم أنها حية تنهشك!

سايرها حتى تخرج وينتهى من الأمر كله

– كيف تتكشف على رجل غريب ولو فى خلوة للعلم؟

– لن ترى سوى عينين

ثم ضحكت وهى تشعل سيجارتها الثالثة

– ولسانًا وشفتين

وقلصت فمها وهى تخرج خليطًا كثيفًا من الدخان

- اطمئن... سأكون موجودة.. كالديدبان
- الدروس الخاصة ممنوعة
.. لا أستطيع..

تقلص الوجه. أدخلت قدمها فى خفها الصغير وحكّته بالأرض.

قبضت بكفها على طرف العباءة وردت فى حسم..

- من الأفضل أن تقبل

أسندت ظهرها على الجدار الفاصل بين البيتين وسهمت عيناها.

- غيرك يتمنى... لكننى قصدتك أنت..

ظل يتساءل عمّ أغراها به، زوجها.. حارس المعهد الذى تبين عينه عن نظرة عداء ساكنة تطل عليه كلما رآه!..

كيف يبدو الأمر بينهما.

- لن تستطيع أن ترفض
- تهددينني!
- من الأفضل أن تقبل.

يدرك أن المرأة تضغط عليه، بل تهدده، تستطيع أن تدعى ما لا يحدث. لن يقف أحد موقف المحقق، أو يتريث من مكائد النساء، وحيلهن.

التزم الصمت...

كان الليل يرسى دُكنته الشهباء، والهوام تبعث هسيسها المختلط، وقلبه المرتجف يؤلمه.. وخوفه من المكائد يربكه.

رفع رأسه إليها..

حركت جسدها فى التواءة مباغتة فلاحت الساق مبرومة ولامعة.

سقط طرف العباءة عن الكتف فاتسعت مساحة الصدر وبدت الرقبة مشدودة، وثنيات الجلد لم تختف تمامًا.. أمالت رأسها إلى الأمام وطرفت بهدبها الخفيف.

- لا تخف.. سنقول أنك تعلم البذران الصغار

وضحكت فى صوت ممطوط.. ومدت يدها إليه ثم كفّتها.

- كلام نقوله.. لو سأل أحد..

ونترت نفسها... وتهيأت... للخروج

- عليك أن تكتم الأمر..

حتى على زميليك

استوقفها.. بدا عليه الاستسلام.

- لابد أن يطلب الزوج ذلك منى حتى أطمئن

أحبكت عباءتها، وعيناها تحوطانه..

ثم مضت متسللة..

***

يومًا بعد يوم وهى تراها معجبة بنفسها... تقبل على الحياة.. يضوى جسدها بالأنوثة، ويبثها.. تتشمم رائحتها كما تتشمم الزهور وهى التى ذبلت وجف عودها وانطوى على رغبة موهومة.. من أين جاءت بقدها المنحوت فى جماله الصابح! ومن لها بتلك الانحناءات المرسومة بإزميل مبدع، والأطراف المنسابة فى ليونة الحرير...

من أين جاءت بنمنمات الوجه.. وتكويرة الصدر، وانخفاض البطن، وامتلأ المؤخرة... من أبيها الذى ما ارتدى جلبابًا إلا فى العيدين؟! من أمها العمشاء مشققة الجلد، هضيمة الخصر!!.

أراحت رأسها على قبضة اليد، وعيناها تلاحقانها.. وتنهيدة تخرج ممطوطة وساخنة أخذت منها بقايا شعور مستور..

هذا الشيخ "الهاطل" كيف له أن يروى جسد المهرة الفائر.. ويكبح جماحه؟.. وهو الذى كان فى أخريات أيامه كجسد ثعبان ميت..

تطوف فى منامتها الشفيفة فتأخذ روحها.. وتظل تحدق فيها وتبتهل أن يحفظ الله ما حباها به..

حين خطت فى توقيع متثائب أسرعت إليها، جابهتها رائحة الريحان التى تحبها. قطفت ورقة ريانة من فرع مدسوس فى شعرها، وأخذتها من أصابع يدها نحو غرفتها التى شهدت فتوحات الجسد.. لكنها الآن غرفة مصمتة من قبل أن تأتى البنت..

تتسرب رائحة الحناء فى جنبات الغرفة، لا تستغنى عنها منذ بدأ الشيب يزحف.. باح المكان بالمستكة، تدخرها لقراءة الطالع واتقاء الكيد من الإنس والجن، تضع القطعة منها فوق خشب يحترق وتظل تضاهى بين هيئة المستكة فى تشكلها والوجوه التى تعرفها.

أعادت ترتيب خلطة الدهون التى تسعفها فى لياليها المعدودة، أو فى مناسبات العرائس.

تمد يدها، وعيناها على البنت، وتفتح صندوقًا مزينًا بسيور من القصدير. عبثت يدها بقطع الصابون، وقوارير العطر، ومكاحل العين، وملقاط الحواجب.

أخرجت قارورة من العطر، نفذت رائحتها قبل أن تصل إلى يدها.. قدمتها وابتسمت.

وتقدمت..

أزاحت منديلها فانهل الشعر بجدائله كموجة محتجزة، وانفلت. غطى الشعر ظهر البنت.. كاملاً..

راحت أصابع العجوز تتحسسه، وترجّله فى دفعات حانية، وعيناها تغرقان فى وجهها.

لم يفتها بريق العين، وهو يبوح برغبة – هى تعلمها – لم تشبع، وبشبق لم يرتو.

وتعجبت.. كيف لا تحترق من سعير الداخل، فتتلوى!؟.

وكيف تبدو ساكنة كأنما هى جسد لروح أخرى!

ظلت البنت على حالها، يهب منها الصهد وتستقبله الأخرى..

فقط تدور بعينيها فى انكسارة خجلى.

تولهت فأخذتها بين يديها، ظلت أصابعها الناشفة تستدفئ بالصهد المنبعث من الجسد وعقلها يأخذها بعيدًا.. ويغزوها تساؤل ومض ولم يخطر على البال... أتشتهيها!!

... أبدت إعجابها بالثوب، وكشفت شفتاها عن أسنان بارقة، ومفضضة مسكت الثوب الشفاف عند الأجناب، ولمته بين أصابعها فتحدد الجسد وفاح بصهده.

ارتعشت المرأة العجوز ومدت يدها، مسدت شعرها وتنهدت "يحميك ربك".. واحتضنتها.

ظلت البنت فى حضنها.. ساكنة.. إلى أن أرسلتها..

أوجع قلبها عينُ البنت وهى ترخى هدبها فى انطباقة راجفة..

وراوغها سؤال ظل يفلت منها ويطل...

أتفعل مثلما تفعل الأخريات اللائى يخترن الصغيرات لأزواجهن؟

ثم يتشاغلن بهن؟

أسعدها وأثارها ما لاحظته على البنت من تبرّم وضيق.

وأصابها القلق الذى حرمها لذة المشاهدة وهى تراها ذاهلة، حتى تكاد لا تعى ما حولها... يأخذها التوتر الذى يجعلها تطوف بالمكان ولا تقر فيه..

لم تعد البنت تهتم بنفسها، أو تتزين للشيخ الهاطل الذى أقبل عليها ولم يُخف سعادته أمامها، فأوغر صدرها وحكمت عليه أن يظل فأرًا لابدًا ومذعورًا... هذا الذى لا يجيد إلا الكيد والمخاتلة!

تركت شعرها مرسلاً، ولم تعد تنتبه لفتحة الثوب فبدا الصدر عاريًا عند كل انحناءة..

أيكون الابتعاد عن زوجها وراء حالتها!

فى الأيام الأخيرة ظلت تهرب منه وتأتى إليها... فى غرفتها.. عيناها منطفئتان، ورغبتها موءودة..

كانت قد نصحت الزوج أن يصبر، فهى فى عمر حفيداته الصغيرات، وما لم تحتج عائلتها للمعاونة ما تزوجت.

كانت تضحك له وهو يستاك متبرمًا وتقول:

- أردت أن تحيى الموات!!

لوّح بيده وأدار وجهه غاضبًا

- ليس بعدك امرأة..

حين لمح بسمتها أدرك أنها رضيت بما سمعت، فرنا إليها وبدا كالمستجير.

- لا تريدين لى كبوة أخرى... كلّميها..

لا تحب له أن يسقط. المرأة الأخرى لم تدم معه كثيرًا. كانت مطلقة، وهاربة من وحدتها، وتواقة إلى إطفاء غلمة دائمة..

لكن البنت صغيرة.. وطازجة، وأدخلته - دون أن يطرأ ذلك على بالها - دهاليز من المتعة، وارتقت بها درجة فسادت.

لا تحب له أن يتهالك، أو يتمادى فيسقط..

لابد له أن يظل قائمًا...

أما هى فعليها ألا تهمل فى هندامها وجمالها فتتعذب بها... لابد أن يتواصلا... حتى تتواصل أيضًا!!

عليها أن تخطو خطوة جادة وتتقدم..

عليها أن تخلص البنت من سطوة الحس الذى أذهلها عما حولها..

أتشتهيها وهى لا تدرى!

هل تفك طلسمًا ظل منغلقًا سنين طويلة!

أتطويها فى يمينها؟ وتضعها فى قبضتها! حتى تستريح، وتظل - كما هى - سيدة المقام... وآمرته.. تشير فتهرع إليها ملبية..

هل تستعيد امرتها لدى الشيخ، فتنله، وتجرح رجولته وهو الذى لم يراع شعورها - وهو يقبل - على البنت فى سعادة لم ترها منه فى أيامها الأولى معه؟!.

فقط عليها أن تخفف من غلوائها، وأن توازن بين الأمور... وأن تهدئ من المشاعر، وتقرّب المختلف.

لا تحب أن تفارقها. لم تعد السيطرة أمرًا يشغلها، تخشى بعد أن تعودت... أن تحرم من مائدتها العامرة.

كيف لهذه المهرة الجموح أن ترتوى، ويسلسل قيادها؟

وراحت تبحث فى خيالها، وتختار...

... لم تدر لم طاف وجه هذا المصرى المتعاقد على الخاطر. هو فى حاله.. لا يذكر بين الرجال الذين تراهم بعينيها المثقوبتين..

لعله الرجل المناسب..

لن يقوى على الرفض.. هذا الذى لا يرفع عينيه عن الأرض، ولن يستغل ما آل إليه الحال... من ضعف، ورغبة وهوس فى الامتلاك.

وتذكرت الجسد النحيل بتدويراته، واللذة الصاعدة لتوها حين بدّلت الثوب... فاجأتها أشواق معطلة... بدأت تنز كرشح الماء.. كانت قد صادتها وهى تقف أمام مرآة طولية وكفها تنزلق فى رهافة ارتعش لها بدنها..

لا تدرى ما حدث... كانت المرة الأولى...

أسرعت إليها..

وقبل أن تنتبه وترتدى ثيابها.. كانت قد أخذتها واحتضنتها.. تملصت البنت قليلاً... ثم استكانت.

أحست براحة حقيقية.. وبخدر لذيذ أرخى عضلاتها..

وراح عقلها مع سعفات النخلة المتمايلة على جذع ناشف مركوز فى الرمل ينتزع ماءه الشحيح من الأغوار فى جهد شديد.

***

تمددت ملامح النهار حتى طالت الفضاء، وتسربت اللزوجة فنزت مسام الجلد بعرق غزير. ظل يكابد حركة التنفس، وتوتر الصدر حتى خشى أن تأتى اللحظة العاصرة بمفاجأة لا تسر.

كان الصباح ثقيلاً فشعر بانقباض، وهاجسه شعور بأن اليوم ثقيل الوطء، وأن رحلته إلى القرية البعيدة فوق التلال العالية جاءت هروبًا من رُعبه الذى نفذ إليه وأقض مأمنه.. هالته تلك الوجوه التى تلونت فانبهمت كأنما ضربتها عاصفة فشدت عصبها وفردته، ولونتها بلون الغبار فى عتمته المصفرة..

كان الطريق إلى قرية (الأحد) يقطع الوهاد الرملية، ويتلوى خلف التلال، ثم يلتف صاعدًا وهابطًا، مارًا بصخور وأشجار، ونعاج متباعدة ومساحات ضئيلة من الخضرة.

تبدّت قباب صخرية كأنها جذاذات من جبال، وراءه نشع المياه التى يمرح حولها الصغار، والسخلان الصغيرة... والماء الذى ينبت من المسام الرملية كندى شحيح يتكور فوق الأوراق.

لم يكن يتصور أن يعثر على هذا المكان الذى يذكّره بقريته القديمة.. المساحة الخضراء، والسيقان المركوزة فى الوسط وفوق الحواف... وحبات التين الصغيرة الملفوفة بعرق أخضر، وعناقيد العنب الأخضر الصغير المغبر بصفرة باهتة...

كانت تمثل له عينا للحياة فى وهدة مجدبة... وميتة..

تناثرت البيوت واستقلت.. تلاصقت بالصخور وابتعدت، بدت فوق مساحة الصخور المتناثرة كعمامات بيضاء. المداخل بيضاء، والجدران بيضاء.. انبعث السرور فى قلبه فترطب.

هبت نسمة باردة فانفتحت الصدور وتلقفتها وجوه مزبدة فتراخت.

تسلل الهوينى حتى ابتعد.. وصلته أحاديث مختار وصلاح وصيحات سعيد.. ونداء الغامدى وكيل المعهد لرقصة العرضة..

راح يعدو بين الصخور. المداخل الواطئة تبدؤ كأنها محفورة فى الجبل.. يُجبرك المدخل على الانحناء.. ترصد العين المشهد من بعيد فيبدو كلوحة مزينة ببقع من الأبيض الباهت... وفى الخلفية فتافيت صخرية... وحبات من التين الشوكى مبثوثة فى الأركان.. ما أحلى القطاف لمن يقدر عليه!!

صادها الضوء فجأة ..

انفتح المدخل ولاح الجسد منحنيًا إلى الأمام.. الوجه حاسر، والصدر عار إلا قليلاً.. وحين استقامت تجلّت كحورية، وحجلت بين الأشجار وطاولت انطلاقات النخيل.. أزاحت الصخور الملساء خلفها وتصدرت المشهد. قمرية الوجه وسط أعشاب صحراوية وكلأ جاف أطرافه كالإبر.

وظل المدخل الذى خرجت منه يحتفظ بنور وضئ...

حمل دهشته، واحتار كيف يتبدى البدر المكتمل وسط هذا الجدب الموحش؟

كانت الشقوق قد ضربت وجه الأرض ومالت الغصون فى انحناءة حانية، وراحت العصافير تبعث زقزقاتها وهى تتدلى أو تقفز أو تلتقط حبًا، أو تطير حتى البئر المسيجة بالشجر والمحاطة بأرض مبتلة وناشعة، ثم تفرد الجناح وتعود.

رآها تنحنى وتمسك فأسًا صغيرة ذات يد طويلة، وتبدأ فى تقليب التربة.

يتدلى من عنقها عقد زجاجى لامع، كلما طال انحناؤها اصطادت الشمس حباته فضوت.

جذبه إليها همة بادية. قاوم رغبته العارمة فى الاقتراب... فنزل..

أدهشه ألا يرى أحدًا. لا شيء سوى فتافيت الصخور وشقوق الأرض، وهذا الوجه الوضيء.. وتلك السماء النازلة على المكان كأنها تباركه..

اعتدلت، فلمحته، فابتسمت..

كانت تعلم أنه يراها.. وأنه يطاول من عنقه ويمد بصره ليلتقطها في انحناة الجسد وتدويراته.

ظلت حاسرة الوجه. فقط سترت صدرها وأحكمت غطاء الرأس، ومهما تخفت فالجمال كالرائحة، يجذبك إليه غيمة العطر السارية.

وضحك حين هبت ريح حملت معها رائحة نعناع برى.. وقف عند نتوء صخرى فتبدت واضحة. أخذه العجب وتساءل فى توجس – أين الناس؟ لم ير إلا نعجات هنا وهناك، أو إبلاً تلتقط الأعشاب، أو ترقد مجترّة..

لم يقو على تنحية الخوف، فالحفيف الذى يصله مع الصمت وخلاء المكان بعث فيه هذا الإحساس حتى كاد يلتبسه فى قوة.

وطالت وقفته..

راودته النفس أن يرجع لكنه وجد نفسه يتقدم وراح يردد فى غياب: من يبدأ لا يهتم بالنهاية.. ابدأ أيها الجرذ..!

ولما ظل صامتًا وجامدًا، تلفتت إليه وصاحت..

– معلم.. لم أنت هنا؟

تلجلج قليلاً ثم قال: – شدنى الجمال

ابتسمت: إيش الجمال؟

ما الذى عليه أن يقوله حتى لا تؤول كلامه... آثر الصمت.

– من "وين"!

– القنفذة

زمت شفتيها وطوحت بيدها متأففة..

ثم كتمت بسمة كادت تتجلى.. وباغتته:

- رأيتك ترفع رأسك وترسل عيونك..

تماسك واحتفظ لنفسه بمساحة من التروى.

- فوجئتُ بالبهاء فانبهرت.

بدت أنها تحادث نفسها، وتحرك وجهها وعيناها عليه.

- إن كنت تقصدنى فبنات الجبال والمزارع سلالة الأتراك ... أزين منى.

انفتح صدره لنسائم رطبة هبت فأنعشته.

- ديرتنا هادى.. آخر حدود المزارع.. الجمال هناك. وتطلعت إليه.. كأنما تنتظر أن يجيب

واتته الجرأة فقال فى سرعة مدغمة.

- إن لم تغضبى.. فأنا أقصدك

واتاها الفرح، فبدت مزهوة..

تشجع واقترب.. مدت يدها واعترضت..

أشارت أن يبقى مكانه، فلن تضمن أن تُخرج الأرض عيناً من العيون أو أذناً ترهف السمع.

- ليش ما ذهبت مع إخوانك؟

- يرقصون العرضة.. وأنا أجهلها.

ارتكزت على الفأس، ولملمت ثوبها فتجسم الجسد

- هم فى الرحبة يشهدون عراك السخلان.

قرأت على ملامحه علامات الدهشة وعدم الفهم.

استدارت إليه كلّية، وغربل النسيم فى الثوب فانفتح، حاولت الأصابع أن تلمه فاستعصى، جذبت يد الفأس باستقامة البدن حتى طالت الصدر.

- فى الوقت هذا من كل عام... يتلهى الناس بتلك الملهاة

- عراك السحلان!

- عراك السحلان

ثم علا صوتها وهى تشبه هذا اللهو.. بلهو الناس فى كرة القدم.

أراد أن يضحك. جاءته الضحكة حاكمة فكتمها فى جهد.

- وأين النساء؟

- تحجبن وذهبن.

- وأنت هنا... بمفردك

- جدّى فى الداخل.. مريض..

- وزوجك

- زوجى والأولاد هناك.

وكأنما شعرت براحة حقيقية، وبود صادق فحدثته عن نفسها... هى الزوجة الثالثة، ولم تنجب، ترعى أبناء ضرائرها، منهن من ماتت، ومن طلقت، وتزوجت.. يقاربها الأبناء فى العمر..

بدا عليها التردد وهى تسترسل، بذلت مجهودًا كى تروّض الغضب الذى بدأ يطل على الملامح.

- تتزوج "المره" مرة أو أكثر.

تنتقل بين الرجال.. عادى..

كادت الدمعة تطفر من عينيها. تقلص قلبه، وتألم أن يكدر الحزن مثل هذا الجمال، وخرجت منه تنهيدة وهو يتدبر حكمة الله ويستدعى رحمته.

– التنقل بين الرجال بصكٍّ كأنه خيانة.

بان الهول على وجهه وهو يتابعها.

– خيانة للأبناء.

انفتحت مسامها وغيمة الملح تنعقد فى العين.

– فى مصر لا يحدث هذا كثيرًا.

– الزواج عندكم.. سهل

– للمطلقة.. أو الأرملة..

الأم تترك جراحًا للأبناء حين تتخلى عنهم لتربّيهم زوجة أخرى.. أو رجل آخر.

ما الذى حدث جعلها تنتفض ويرتجف بدنها، وترمى بقوة بفأسها بعيدًا، ويتقلص وجهها وتكشف عن صدرها حتى ليبدو وعيها غائبًا..

وقعت تحت ضغط انفعال قوى. ضعف البدن فتهدم، انكفأ البنيان على نفسه..

ارتعب وراح يدور حول المكان عاجزًا..

خشى أن يكون أصابها ضرر فهرول مرعوبًا، مذعورًا، حتى وقف أمامها... رانيًا فى ابتهال أن ينقذه الله من هذا الموقف، وأن يخفف عليه التجربة، فهو غير قادر عليها، وينوء قلبه بثقلها..

لكنها فى حركة مباغتة هبّت قائمة. نفضت عن ثوبها التراب والحصى والكلأ الجاف، وخطت نحو الفأس والتقطتها.

استدارت إليه وقالت فى حسم.

– اذهب إلى إخوانك.

وتلهى بالسخلان

اذهب...

طالت وقفته حتى إذا اطمأن.. ورآها تقبض على الفأس وتعمل... انسحب.. وعبارتها عن التنقل بين الرجال بصك شرعي.. تتردد فى نفسه، وتتسع مساحتها حتى كادت تغطى على الخلاء كله.

أخذ طريقًا ملتويًا، قفز فوق صخرات ناتئة، وتسلق نتوءات جبلية مدببة، واستدار فوجد نفسه خلف تل من الحصى المجروش، اعتلاه... تبدت أمامه مساحة عريضة وممتدة بينها وبين التل فجوة بطول المساحة كأنها ممر.. تنطوى لمن يجيد القفز.. الأرض الممتدة ليست فى استواء كامل لكنها تنبئ عن أرض لها خاصية متميزة... منخفضة قليلاً، وتكاد تتصل أطرافها بالأرض التى تركها.

تكاد تكون مسيّجة بأحراش صحراوية، ونباتات شوكية.. تهتز فروع التين على المدى، وعناقيد العنب تضوى فوق أشجار الكرم الملتف. وثمة فسائل نامية ومشرعة من أشجار النخيل.

كانت الشمس الصحراوية لا تزال تمارس طقسها النارى فتضغط بلهيبها، فيتلوى الهواء ساخنًا.. حبات من الماعز والغنم تمرح.. وتعدو وتلوذ بالظلال.. والخضرة.

هيأ نفسه واستعد، ما الذى يمنعه من تنفيذ رغبته التى طافت به وحركت شجونه! هل يظل – دائمًا – حاكمًا رغباته، وائدًا إياها خوفًا من مجهول قد لا يأتى أبدًا!!

تراجع.. ودقق النظر، ثم خطا وقفز.. واقترب.. وزهوة القفزة تكاد تسكره..

رأى طابورًا من الرجال يصطف فى خيط متعرج..

كان الدلو يعلو ممتلئًا، والماء يفيض كأسلاك من الفضة المذابة والأيدى تمتد فى لهفة لتقبض عليه.. وتسكنه فى الجرار، والجراكن!!

تنحى واحد منهم وراح يسكب فوقه الماء ويدعك جلده الداكن.

علا صوت ينهره.

– يا رجال الشافى هو الله

لم يهتم وواصل استحمامه وهو يرمقه خلسة.

– العلاج بالماء أكذوبة..

يكاد الطابور ينفك.. تنحى البعض بعيدًا، وارتحل من ارتحل... وبدأت النساء يتقدمن نحو البئر..

كان شيخ عجوز يصدر تعليماته من أمام عشة قريبة.

كل واحدة تملأ جرتها بنفسها..

نفرت واحدة وتقدمت.. وقفت وتلفتت، ثم خلعت عباءتها وشمرت ثوبها المزيّن بألوان صاخبة. بدت ساقاها بيضاوين كأنما يحاكيان زبد الماء.

تعجب من بياض النسوة فى هذا المكان النائى...

حاول أحد الفتيان أن يتقدم عارضًا خدمته فنهرته فى قوة: وخّر بعيد..

ثم زامت وهى تواصل دفع الدلو..

– ما تستحى على وجهك..

راحت النسوة يكركرن بأصوات رفيعة مصحوبة بشهقات تنتهى بصوت كأنه فقاعة انفجرت.

أخذت امرأة، فتلفتت.. كانت قد شعرت بالتصاق دافئ يأخذ عجيزتها... ابتسمت لها وهى تطوح بخصلات شعرها.. اعتدلت.. سألتها عن زوجها.. عبست وقالت فى تبرّم، وهى تخب بقدمها فى الماء المتجمع...

- ما نظرتُه من سنين خمس..

تتلفت النسوة، ثم يستدرن، ويصببن الماء على أجسادهن.. حتى بدا الأمر عجيبًا ومثيرًا..

كان الشيخ الذى يتولى أمر البئر... قد أشاع أنه يشفى الأمراض... خاصة ما يتعلق بالجلد ... والباه...

طيرت الأوجاع الخبر..

جاءت القوافل... وعبّت النساء من المياه ما يكفى لحياة بأكملها، وضاق المكان بمرتاديه حتى اختلط الرجال بالنساء... وترددت عبارات... الماء الشافى من كل داء، يفك الأعمال ويفشل المسحور، يحيل الرجل ثورًا، يزيل نحس العذراء.. يساعد فى اعتلاء المناصب!

جاءه الآمر بالمعروف ونهاه عن استضافة الناس وطالبه بزراعة حبة البركة، والشمر، والريحان، والنعناع الجبلى وحذره فى قوة أن يعود لهذا الفعل، فهو نوع من الشرك.. والتزمه وهو يطمئن على جيبه الممتلئ.

- الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق..

ونبهه إلى أن النية قد تتجه إلى تحويله إلى منفعة عامة..

لكن امرأة ماكرة استطاعت أن تجبره على ترك المكان، حين غزته، وشغلته ثم أخذته إلى قريتها.. البعيدة.

سنوات.. مرت..

كان أمر البئر فى يد أخيها.. يديره من وراء العيون، فى تكتم شديد.. جمعت ثروة، واستطالت مكانة...

لكن السر ذاع... وافتضح.

طردت الرجل.. فعاد إلى البئر من جديد.. وغرس شجرة أراك أمام باب العشة تذكره بأيامه التى ولت، وبحديقته التى طالت وامتدت..

وعاد البئر يروى الناس والدواب والشجر.. لكنهم لا يملون الحديث حوله.. ويأتون إليه.. وفى نفوسهم هواجس وأمنيات تروح مع الهواء المثقل برائحة النعناع البرى.

لكن خبر العرّافة لا يزال يأخذ مساحة من أحاديث النساء، كل واحدة تحكى كأنها العليمة.

فى زهوة المكان وفرحته بالنساء اللائى يأتين للعلاج وتدبير الوصال.. حطت العرافة بعنزتها السوداء المحجّلة بالبياض.

كانت ترتدى أثوابًا متداخلة الألوان، ومتهدلة على الصدر والأكتاف. أنفها الغليظ بحلقته النحاسية يخطف البصر. على كتفها تضع عقودًا من الودع والكهرمان وتمسك فى يدها بزمبيل ملىء بجذاذات من الأقمشة والمناديل جمعتها من البيوتات التى دخلتها، والحارات التى جاست دروبها، والقنن العالية التى صعدتها.

لم ترفض أحدًا، وما تمنعت عن قراءة الطالع.

اختارت مكانها قريبًا من البئر، فرشت سجادتها وأحكمت حبل عنزتها.. رفيقتها حيثما ذهبت.

قبل أن تغيب الشمس تكون قد قرأت طوالع النساء والرجال، وتكون قد اختارت الرجل الذى سيذهب إلى من تنتظر.. وفى يده علامة من العرافة تكون – غالبًا – جذاذة من قماشها الملون... تفتح له الطريق.. ليلجه..

لكنها أخذت عنزتها ورحلت بعدما تغير الحال، ولزم الشيخ عشته... وأشرف على البئر.

... فى عودته كانت خطوته مشدودة إلى الصخر.. وسأل نفسه هل يمكن أن يقفز مرة أخرى بمثل هذا الزهو؟.. ساقاه تنفردان فى عزم من يخاف أن يسقط فى فراغات الصخور، أو تنزلق قدمه على السطح الأملس للصخر..

خشى، وارتعب، أن ترتخى عضلاته فيهوى..

شد جزعه، وثبت قدمه وقفز..

واجهته المساحة المفروشة بفتافيت الصخور، التقط حجرًا ورمى به فى اتجاه البئر ميممًا شطر جماعة الرحلة ورياضتهم المفضلة.

***

البنت التى قدمت لها قلبك، تركتك للصحراء، ترعاك، وتجتث جذرك.

خاطت فمها ولزمت صمتًا مريبًا، يؤلمك هذا الصمت الذى يناوشك فى رسائلها... والعبارات المختزلة كحد السكين... "لقد تغيرت.. وكفى"...فى إحدى الرسائل كتبت "حلمت بزهر البرتقال فوجدته بين يديك حبلاً من الشوك"...

وأنت الذى ارتحلت من أجلها تقول لك: "إن صدرك يضن بكلام الحب".. ألا يكفيها أن رسائلها تتأخر.. فتحجب عنك أحوال قلبها..

أنت الخميلة... وبستان الورد، حين "أتكئ على حافة عينيك، أخشى أن تأخذينى بين أهدابك وترتخى علىّ..".

أمها التى فاجأتك وأنت ترحل فى عينيها قالت وهى تبتسم، وترمقك.

- تعلم الإبحار..

تجتاز الجزر فى إبحارك.. فى لجة المالح، تمخر العباب، وتركب الموجة... وتكتب لها على قدر ما تكتبه "أنا كالزورق فيه، وهو بحر لا يحد.."

ما الذى أصابها وهى تكتب غاضبة "كيف لا تحدّنى.. من لا يحدد محبوبه لا يحب".. يا الله..

أنت مرصود فوق الحصى، والصخور.. تغريك أوتار الريح.. لكنك.. تعزف على وتر الغربة.. يقتلك الفراغ. وتصدمك النسوة البيض فلا تغازل، ويقتحمك الصخر.. والرمل والوهن...

تأتيك العبارة كاوية كحصاة مدببة "ما الذى حولها، فبدل حسنها!! أهى حالة تأتيها!!

... وهى تسير بجوارك فى اتجاه شرفة نادى المعلمين.. حاولت لفت انتباهها.. إلى النيل والقوارب الصغيرة، ووهج اللمبات، وريح رخية تهب..

جذبت ذراعها منك.. واجهتك وقدمها على السلمة الأولى من المدخل وقالت..

- لقد كففت عن مداهنتى..

وتأخذها قسرًا، وتجلسها أمامك والنيل خلفها، يغريك من وراء ظهرها أن تبوح لها.. أن تقول أنها أخطأت حين وصفت حديثك عنها بالمداهنة...

يا الله...

- أهى المرأة التى تحب النفاق فى القول... والفعل.. أتقصد هذه البنت، ألا تكف عن حديث الحب؟

كتمت بسمتك، وضغطت لسانك وأنت تستعيد جهد المرأة فى الاحتفاظ بعشقها "تكدح المرأة كدح الإبل..."

ماذا لو بحت بالقول... أكنت تداهنها؟

تفرد الشعر المنسدل عن جبينها، وتحدق فى عينيها وأهدابها تتسارع كأنما تحاكى خفقات القلب.

أدارت وجهها... فلمحتها. كانت تقرأ الفنجان، وترمقها ... اعتادت أن تراها فى المقاصف، والنوادى القريبة من النيل..

أنيقة، محتشمة..

أشارت إليها فأمهلتها.. وأومأت.. سحبت أصابعك من راحة اليد الساخنة كى يضع "العامل" فنجانى القهوة... فى الرشفة الأخيرة... حدقت فيك ثم قالت وهى تحرك الفنجان..

- الحديث فى الحب متعة صافية

ثم ضحكت وقالت وهى ترمقها.

- لم أر جميلة لا تكذب..

وحين اعترضت أسرعت وقالت:

- الكذب فى الحب متعة

وراحت تحدثك عن عالم جديد، وبحر تقطعه، ومكان تقطنه، ومسافة تفصل بينكما وحب يتقد على البعد..

ثم نكست الفنجان وهمست مداعبة..

- ليس فى قلبك إلا صورتها

وأشارت إليها.. فابتسمت وداهنتك

.... وها أنت تقتل وقتك الذى يتمدد فيك وحولك كأفعى.. ولا تجد أمامك – كى تنسى وتبتعد – سوى الإبحار فى البنت التى تتأبى بوجهها عليك، وبصمت حروفها الشحيحة إليك..

أيتها البنت كفىّ عن الدلال وابعدى عن غوايتك، قربينى منك... كى أجتاز المدى إليك..

وخففى حلولك فى الشرايين والأوردة..

***

الموعد بعد صلاة العصر.. والمكان برحة واسعة تبدو كالحوش الذى يتخذه الشباب مكانًا للعب، ولمباريات كرة القدم.. يبعد قليلاً عن العمران. يصله بالديار المتناثرة دروب مفروشة بالحصى الناعم المدكوك بفعل الحركة الدائبة..

تقف على جوانبه عدد من الأشجار المورقة، وثمة مساحات متفرقة من النجيل تفرش الملعب، وقوائم المرمى فى الجانبين كالحة ومتآكلة.

تزايدت أعداد المشاهدين، وراحت تلتف حول منضدة صغيرة.. يجلس خلفها رجل حاسر الرأس، وأمامه علبة ملفوفة بورق مفضض جميل، وحول عنقه تتدلى صافرة زرقاء اللون.

علت الصيحات واختلطت

على الأطراف البعيدة وقفت نسوة تلفعن بعباءات ثقيلة وأسدلن الخمار، وبدت العيون بأهدابها المكحولة تترصد المكان وتجول فيه، قبضن على أكف الصغار واشرأبت رءوسهن.

جذبه الشيخ من يده وبدا كأنما ينهره.

– وين كنت؟

– بهرني المكان... وشغلني

– انتظرناك على الغداء...

وضحك وهو يلوح بيده ناحية جماعة المعهد..

– الطعام لا ينتظر..

كوّم الطلبة ما تبقى من طعام... وحملوا برادات المياه الصغيرة... ووضعوها فوق شبكة السيارة "الوانيت"... قطع المسافة فى هرولة، واستخلص لنفسه بقايا من خبز التميس وبيضتين مسلوقتين، وقطعة من الجبن، وعافت نفسه ما تبقى من علب التونة.. ودس فى جيبه إصبعًا من الموز..

أقبل على الطعام فى شهية لم يتعودها من قبل..

تناثرت جماعة الشباب فى حلقات.. فى الوسط تقف الكباش متأهبة للمباراة... والمناطحة... القرون غليظة ومدببة عند الأطراف..

ملتفة.. وملتوية.. ناتئة، ومدلاة... حتى لتبدو فى إطار المشهد كدغل من الأغصان الجافة.

يقبض الفتى على الرّسن وينتظر.. إشارة الحكم.

الزينة التى تعلق بالكباش تلفت النظر وتكشف عن الذوق الجمالى لأصحابها...

تعالت الصافرة... وطاف صوتها بالمكان...

دارت عين الشيخ بالجمهور المحتشد وجهر بصوت مسموع.

– لهو "لا يقره شرع"..

التقط الرجل الذى يمسك برسن كبشه عبارة الشيخ، شعر بأنه المقصود، وعليه أن يرد.. ولا يتجاهله...

– هو ما عهدناه من الآباء..

ألا يشابه الأمر كرة القدم!!

– لكن البهائم تتألم؟

أدار رأسه.. وحدق فيه والغيظ يطل من عينيه.. فالوقت لا يتحمل مجادلة، وصفاء الذهن مطلوب، لأنه ينعكس على حالة الكبش... عيناه تأخذان الوجه كله معه وهو يناطح الآخر..

حالة من المزاج تنتاب الحيوان فى حلبة المنازلة..

كالبشر تمامًا... يخاف، يحرن، يتباطأ، يهرب، تدور عيناه فى المكان كأنما يفكر، أو يبحث، أو يجمع قواه الهاربة..

... هو يحن إلى وجه صاحبه الذى يحفزه، أو إلى لون يثير لديه الدافع..

وكالبشر يتحين الخصم تلك الحيرة الطارئة ويبادر... فيروح يلف حول نفسه، أو حول الخصم متباهيًا، وهو يدرك أنه يبث رعبًا فى قلب خصمه، وقد يفجأه بطعنة مباغتة يترنح بعدها أو يسقط..

ظهر عليه الغيظ ثانية فاحتد قائلاً:

– اطمئن لن تشكو..

لم يتراجع الشيخ، وتصور الرجل أن الأمر مقصود لإثارته ونقل الحالة إلى كبشه – "المناطحة لا تستقيم بهذ الصورة"..

- كيف نطمئن والقرن يبقر البطن ويسيل الدم.

وبلغ الانفعال مداه، وأقلت الرجل الرسن وقال هازئاً ..

- سأجمع الغنم لتخطب فيهم وتحرضهم علينا..

هذه المرة تراجع الشيخ، أحكم غترته وأسبلها على الكتفين ودس أصابعه فى لحيته البيضاء الكثة.. واندس وسط الحشد.. وتوارى..

أعلن الحكم بدء المسابقة...

اختال الكبش وتقدم، تزينت رقبته بعقد من الترتر الملون، وأحاطت قرونه دوائر نحاسية كالصّاجات، وكان كلما خطا يحدث صخبًا ورنيناً موقعًا يجذب عين الآخر المتربص به والذى تجرد من كل زينة... إلا من لون بنى طبيعى ينتشر فى الصوف الأبيض فوق الظهر وحول الأرجل. اعترض صاحب المجرد على وجود "الصنج" الدائرية.. التى تحدث جلبة "تخبل" العقل وتشتت الانتباه.. و"توثر" على زمن المباراة وكفاءتها، فلا يتناطح بالجهد المطلوب..

تقدم الحكم وجرد الكبش من الصنج وترك عقد الترتر الملون.. واطمأن على مقاييسه بين الاثنين.. من.. ضخامة، وامتلاء، وحجم، وعدد القرون، وطولها، وامتدادها، وتشعبها..

وخلو الصوف من أية أدوات حادة مدسوسة.

حين تقاربت الرأسان لم يتناطحا.. تلامست القرون فى مس خفيف وكأنهما يمارسان نوعًا من الاختبار.. مالت الرأس جانبا، وخطفت العين نظرة إلى المالك يلتمس منه دعمًا يحتاجه..

انفصلا فجأة وتراجعا، الرأس منتصبة، والقرون تقدح، خمشت الحوافر الأرض فثار غبار الرمل.. طأطأ كلاهما الرأس واقتربا، تناطحا بقوة،

وتشابكت القرون.. ظلا يتناطحان، يستديران، يكران، يفران، تلتصق الرأس بالرأس فى تدافع... والأرجل الخلفية تنغرز فى الأرض.. ينفلتان، يرشق القرن البطن فى قوة فيثغوفى صوت كالصراخ النادب..

توقف الكبش المزين بالترتر فجأة.. كان العقد قد انفرط إثر نطحة قوية.. تساقطت مشغولاته الزاهية، وتناثرت حوله.. توقف، ثم تلفت، وراح يتشممها..

بدا كأنما يستعرض، ولا يلقى بالا لخصمه... كان يساير نفسه، أحس أن شيئًا منه سقط، أن جماله انتقص وأن الآخر حقد عليه لخلوه من هذه الصفة..

الفتى الناحل الذى زينه.. وكان يزينه فى كل مناطحة.. راح يصيح، ويشير إليه أن يتقدم، أن ينسى قليلاً ولعه بالعقد، أن يتناسى صورته التى تملأ المرآة، وألوان الترتر و"الشراشيب" الملونة تتدلى حتى تكاد تغطى الرقبة تمامًا..

ما الذى جعله يقدم على هذه العادة التى جعلته يتباهى ويتناسى المطلوب منه؟ هو نفسه كان يتمنى لو فعل.. لكن ماذا يقول للناس؟..

وضح للمشاهد أن الكبش المختال أصابه الحزن، وأن حيرة تملكته.. وقف متبلدًا تعكس عينه حالة من عدم الاهتمام.. ألا يخشى هذا الآخر الذى يتربص به!

يا للكبش الغبى.. ها هو سيفوّت على الفتى النحيل نصرًا تعوده وفرحة تظل تلازمه أيامًا حتى يعثر على أخرى تسعده..

وهؤلاء الذين يتابعونه، ويصيحون... لن يستمتعوا بما يرونه فالنتيجة محبطة.. وغير كريمة...

فى الجانب الآخر، كان الكبش يتربص وينتظر..

اندفع فى اتجاه المختال الحزين.. دون مراعاة لمشاعره وحالته المؤلمة..

طعنه بقرنه الحاد طعنة قوية أمالته، وأربكته فسقط على قوائمه.. حاول أن ينهض فعاجله بنطحة قوية من الخلف أخذت رأسه إلى الأرض فاشتبك القرن بالنجيل..

دار حوله دورتين، هبشه بحوافره، وكان كلما رفع قائمتيه فاجأه بنطحة تعيده إلى وضعه المهين..

بدا أنه استسلم...

أعلن الحكم النتيجة.. فاز المجرد.. رفع رأسه مزهوًا بالنصر أصدر من صدره المنتفخ "مأمآت" متوالية بدت له كأنها نغمات على طبل مجوف..

صاح صيحة النصر، فردد الجمهور مأمأته..

نهض المنهزم متخاذلاً، وعيناه ترمقان بقايا الترتر المتناثر.. ورأسه تدور باحثًا عن صاحبه الذى هرول إليه.. أخذه فى صدره وظل يمسد ظهره فى حنو بالغ..

حاول الآخر انتهاز الفرصة فقفز ناحيته، وراح يلاحقه وهو فى حضن الفتى، غضب الجمهور فأسرع صاحبه، وقبض على رأسه ومضى به فى زهو واضح.

والحكم يقدم هديته المفضضة قال "الشّشة" فى احتجاج..

– نصر رخيص... شغله الترتر عن المناطحة..

كاد الفتى أن يختنق. ألم كاو يمشى فى صدره، وهو يلوم نفسه على تلك العادة التى جلبت عليه هزيمة نكراء...

برز الشيخ من بين الحشد، ووقف قريبًا من الحكم..

وقال فى صوت عال كأنما يعظ..

- حب الذات يورد الهلكة...

انسحب الناس دون أن يبالوا به..

- لا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر..

تعالت الضحكات.. ثم خفتت شيئًا فشيئًا.. وحل صمت صحراوى مخيف..

***

فى الصباح و"صابر" يدخل من باب المعهد، لمحه الحارس فأسرع ونادى عليه.. اكتسى وجهه بملامح جادة واتخذ سمة من يهم بأمرما.

لم يُخف نصيحته - على غير العادة - وبدا كأنما ينبهه..

- المفتش - حقّك - وصل.. دير بالك..

وقبل أن ينطلق للقاء الموجه استمهله ونطق فى خفوت..

- بعد الدوام أبغيك فى كلمة.

لم يجب.. ومضى صاعدًا..

حان موعد التوجيه..

كان الموجه صديقًا سودانيًا، يقرأ جيدًا ويقرض الشعر فى المناسبات.

لم يبدأ طابور الصباح.. تجمّع الطلبة فى الفناء، بدوا رجالاً أو شارفوا على هذه السن.. يحرصون على الحضور يوميًا لضمان استمرار المكافآت المالية التى يتقاضونها شهور الدراسة. ظلوا يرددون على مسامعهم: أن

المرحلة الابتدائية تحتاج إلى معلمين وطنيين ليحلوا محل الوافدين من العرب.. سعودة الابتدائي مرهونة بكم..

شعر الطلبة بزهو طارئ.. لكنه زهو سرعان ما يغيب طالما يضمنون المال.. من عادة الموجه أن يبكر فى الحضور، ويشارك فى طابور الصباح، ويتابع النشاط الذى يؤديه مدرس التربية البدنية وهو يقوم بتوجيه الطلبة لأداء التدريبات السريعة والتى تجلب النشاط البدنى والذهنى لهم..

لا يغفل الموجه تدوين ملاحظاته..

وكان يسعد حين يجد بالمدارس التى يشرف عليها من له اهتمامات أدبية..

وينتظر فى شوق كلمة الافتتاح فى طابور الصباح.. والتى تعكس غالبًا المناسبات الوطنية والدينية والموضوعات العامة..

أجاد الطالب القراءة، ولوّن فى صوته، وحدد إيقاعات الفواصل وأدرك أنه مدرب على الإلقاء، وأن تكوينات الجملة والصور التخيلية تكاد تبتعد عن المستوى اللغوى للطالب..

رمق "صابر" من بعيد وابتسم.

من عادة المتعاقدين فى المناطق النائية التى تخلو من استراحات خاصة.. أن يستضيف الموجه واحدٌ من المتعاقدين، إن تعذر السفر. ويتعذر السفر فى "القنفذة" دائمًا، لطول الطريق، ووعورته وعدم تدبير الوسيلة بسهولة.

تعود "الميرغنى" الموجه السودانى على أن ينزل ضيفًا لليلة واحدة على مختار.

.. فى نهاية الدوام لمحه الحارس بصحبة الموجه فتكدّر، تمنى لو وجده بمفرده حتى يُسر له بطلبه. اليوم.. الموعد النهائى الذى قطعته حُرمته عليه أن يخبر صابر بأمر الدرس الخصوصى... وإلا فامتناع البنت عليه سيطول..

وتقدم.. وهو يدمدم فى تحد: سأحدثه ولو كان فى معيّة الأمير..

ونادى عليه..

التفت إليه وواصل السير..

يعلم أنه يريد أن يفضى إليه بالأمر الذى يمثل رعبًا خالصًا..

يود لو ينسى. "ألا يحس أننى أبغض هذا الأمر"

لكنه صاح فى قوة وهرول ناحيته وشده من جلبابه..

- أزهم عليك.. ما تستحى!

ضحك "الميرغنى" .. تعود على خشونة القول الذى لا يقصده صاحبه.. وتنحى قليلاً وقال: الرجل يريدك..

شده من يده، وانتحى به نحو نتوء جبلى وقال متخابثًا..

- أدرى أنك تعرف.

- لا أدرى شيئًا... قل...

راحت كفه تشد أطراف الغترة، وتسوى جوانبها، ومست أصابعه ذؤابات اللحية المحنّاة، وبدا مرتبكًا..

- حدثتك الحُرمة عن المطلوب.

- مطلوب.. إيش!

وبانت أسنانه الصفراء فى اهتزازة مفاجئة لشفتيه..

- تعلّم البنت

صوّح برأسه ورنت عيناه بعيدًا.. وتنهد

- الشيطان – والعياذ بالله – ركب البنت، تبغى تدرس، وتكمل.. ومعلماتها أجهل منها..

لزم الصمت، وعيناه تتابعانه.. كان الرجل قد وقع تحت ضغط شعورى فاض على ملامحه التى ارتعشت فى رجعات متوالية.. وخلا الوجه من عبسته، وعينه من مكرها الذى عهده فيه.. ورمق "الميرغنى" الذى كان يتباطأ فى سيره كأنه يقف.

- تدرى.. الأمر صعب..

وتأفف وهو يشير إلى الموجه الذى مل من الانتظار..

- الأمر عندكم صعب جدًا..

بُوغت به يرفع صوته كالنداء السارى فى الفضاء الساكن.. أدار الميرغنى رأسه، ومضى متباطئًا..

- العجوز قالت إنك وافقت.. بشرط..

أن أحادثك

وشده بقوة وقال: – وأنا الذى أطلب منك هذا المعروف.

- أهو معروف؟

- نعم

- إذن.. المعروف بلا مقابل...

تنهد الرجل، وشعر بحمل ثقيل ينزاح من فوق صدره.. وانفرجت أساريره..

- يرضيك ابتعاد البنت عن الشيبة..

لمعت عيناه، ورأى فرحة معقودة كأنها دمعة تريد أن تنهل.

- ماذا بقى من العمر حتى أقضيه فى البعد عنها؟!

ابتسم صابر وأذعن لمطلب الحارس..

وهاجسه شعور لابد.. بأن الدرس المعروض عليه كالقدر لا يقوى على رفضه..

لم يعلق "الميرغنى"..

مضيا يتسامران ويتضاحكان.

... حين ولجا الباب وجدا مختار متحررًا من ملابسه. ضج صائحًا لمرأى الموجه وهلل في سعادة "هلاً بالزول" فرش البشر قماشته على الوجوه، وراحا يحتضنان..

خلع صابر جلبابه وارتدى منامته..

عليك أن تغير ملابسك، قالها مختار وهو يدفعه أمامه إلى حجرته، ويلتفت إلى صابر لفتة دالة وعاها.. وفهمها. لم يعد صلاح بعد.. فوجب عليه القيام بإعداد الطعام..

علاقته بمختار لا تسمح بأن يطالبه بعمل إلا إذا أقدم هو عليه. يحترم سنه، وشواغله النفسية.

على غير عادته قدم مختار ثلاث زجاجات باردة من الكولا.

توقف فجأة وهو يجهز السلطة.. كان صوت الموجه عاليًا وهو يقول فى تؤدة: ولو .. أحب الشاى..

ابتسم – طواعية – ورائحة البصل تعلق بأنفه..

أما مختار فلقد أضاءت وجهه سعادة حقيقية وهو يسمع لازمته.. فى الحديث – وهى تتكرر وتتردد على ألسنة الأصدقاء والزملاء.

– ليس فى البيت إلا التونة والتميس والجبن المطبوخ

وعلا صوته زاعقًا:

– ماذا نفعل.. تفاجئنا دائمًا.

– وماذا تفعل لو أخبرتك؟

– كنت تزوجت لتخدمك..

شعر الميرغنى بخجل طارئ.. وكادت النوبة تأخذ مختار فخرج صابر سريعًاوهو يعلو بصوته المرنم..

– أحلى سلطة من صنع إيدى..

أعاد العبارة ومط الصوت فانخلع مختار ضاحكًا وعلق مندهشًا..

– ماذا جرى لك! ليست عادتك..

لم يشاركهم صلاح الطعام.. وصل متأخرًا..

كان الليل يصارع قسوة النهار ويغافله حتى يسحب منه لهيبه الساخن.. ويدور فى مدارات الأرض واسعة الأرجاء حتى يبترد الهواء ويخف اللهيب. فى لحظة الانسلاخ تعوّد الباب على حركة اليد القوية تدفعه بلا رحمة.. ليدخل صلاح فى عجلة.. وهرولة..

هزه مرآه.. وهلل له وسعد.. وذكّره بنوادره فى جولات التوجيه، وجلس فى مواجهته..

– جاء دورك

توقع أن يكون دورًا فى الحديث، أو خوضًا فى النميمة، أو تلخيصًا لمشاهده اليومية، وخفايا لفتاته، ونظراته المارقة. لكنه حين فهم المراد تأفف ورفع رأسه تجاه صابر.

أسرع مختار يقول فى نبرة عطف..

- لقد تعب فى تجهيز الطعام

وأنت.. لا نكاد نراك.. عقوبتك أن تعد الشاى.

عقب الموجه وهو يطالبه بسيجارة

- يذكّرنى شايه.. بشاى ليالى الحسين..

نتر صلاح جسده مرة واحدة وغنى معقبًا "يا عينى".. فرد ذراعيه وحدق فى الميرغنى..

- بشرط.

- قل.

- تحكى لنا نادرة من نوادرك..

هز رأسه موافقًا..

سكن البراد فوق الصينية فى جلال، تنساب منه خيوط هشة من البخار.. تحيط به أكواب صغيرة مزينة برسوم باهتة الألوان من الجوانب.. طبق مسطح تلمع فيه قطع صغيرة من السكر، ملعقة صغيرة ذهب طلاؤها الفضى فى المقبض.. أعواد النعناع الذابلة المرشوشة بالماء يصحو أريجها من هجعة ذابلة.

على ضوء شاحب ينفلت من الركن يمد يده، يلتقط قطعتين ويصب الشاى من البراد الصينى.. ويشرع فى تحريك الكوب فى بطء.. وهو يصوب عينيه إلى صلاح الذى يستحثه ببريق عينيه..

رشف رشفته الأولى.. وهز رأسه راضيًا..

شمّر كم جلبابه الواسع.. وعقده عند الكوع، واتكأ على ركبته وشرع يحكى..

.. فى الجنوب وفوق جباله العالية كان يعمل مدرسًا.. القرية بيوت متناثرة، منحوتة فى الجبال أو قائمة فى بطونها.. أو واقفة على نتوءات عارية.. يمر بالمدينة مرتين: الأولى حين يصل والثانية حين يسافر.. تعود أن يأخذ معه أغراضه من حبوب ومعلبات، وسمن، وسكر، وزيوت وغيرها..

تقترب الحياة من الموات.. لا حياة بعد صلاة العشاء.

الطبيعة الجبلية الموحشة أشعرته بالفراغ وبمساحة الفضاء.. يقضى وقتًا مع الأصدقاء فى القرى المجاورة.. أفراد قليلة، ومواطنون تكاد تعدهم عدًا.. يلعبون الورق وأحيانًا الشطرنج.

لا راديو.. لا جرائد... ولا وجه جديدًا يراه إلا حين يأتيه الموجه.. وقد لا يصل..

وسيلته فى التحرك دبّاب صغير يحمله أحيانًا فى الصخور الوعرة..

فى جولة له تأخر ليلاً. وفى عودته واجهه ضبع.. المكان تمرح فيه الضباع والذئاب والسعادين... لولا الضوء الذى أرسله من عيون الدباب لكان الآن فى رحاب الرحمن.

أحس بالخوف فاقتنى سعدانًا كعادة أهل القرية؛ يستأنسون بالقرود فتحافظ على البيوت وتحميهم من أكلة اللحوم.

قلّت زوراته لأصدقائه، وأقبل على القرد يلاطفه ويؤانسه، ويلاعبه خشية أن يمل فيتركه..

... فى يوم عاد إلى البيت فوجد مع القرد قردة جمّلت نفسها وتحممت.. حين نظر المدرس إلى القرد مستفسرًا، أقبل عليه، وأحنى رأسه خجلاً، تمسّح فيه على حين ظلت القردة بعيدة ترنو إليهما..

أدرك أن القرد احتاج إلى مثيله وأنه بدأ يضيق بصحبة الإنسان.

حين غضب وطرد القردة حزن القرد وتألم.

لزم مكانه لا يبرحه.. ولم تفلح معه مصالحة..

وفى يوم عاد المدرس من عمله فوجد أغراضه مبعثرة.. والقردة يمرحون، ويتجمعون لدى الباب، كأنهم يمنعونه..

ظل واقفًا بالباب يرتجف، والقردة يلهون والقردة الأنثى.. تضحك وتهبش الأرض وتقذفه بالحصى..

صاح فلم يسمعه أحد.

جرى قرد فأوصد الباب.. خاف من وحوش الليل.. ظل يدق ويتذلل حتى دخل.. جاءه القرد الذى لازمه.. فهش له.. وضحك. أبدى له ندمه، ومسح ظهره، وأعطاه حبوبًا، وفولاً..

أدرك القرد الموقف، وقبل الاعتذار وصاح بالقرود فخرجت فى ضجة..

جذب قردته فى ود واضح ودخل إلى حجرة النوم وأوصد بابها..

لم يبق له إلا أن ينام فى ركن صغير من الفناء الخارجى..

ظل على هذه الحال حتى آخر العام..

ألغوا عقده.. كان قد جن..

***

ما الذى أتى بالعصفور الداكن ليقف على الجدار العالى الذى يفصل بين البيتين ويروح ينقر الفتحات ويرسل جناحيه ويطويهما ثم يطير باعثًا بأصواته الصائتة كأنها رسالة!

أتراها رسالة إليها.. لم تكن ترى عصفورًا يحط على سنام الجدار ويلعب فى فتحاته، ويدخل رأسه، ثم جسده إن استطاع كأنما يقيس سعة المكان ويتدرب على بناء عش..

هل يعنى أنه جاء بالفأل معه؟..

وهل كتب لها أن تنسج عشها بمساحة خيالها وقلبها يضخ فيه موجة إثر موجة، فتبنى القصور، وتركب السماء، وتستحم بندف السحب.

هامت عيناها وتخيلته واقفًا أمامها كسنا ضوء بارق يمد يده إليها ويطويها، ويحلق بها فى الأعالى، تصاحبه أسراب العصافير وعلى الأجنحة قبّرات الفجر، وفى المقدمة يمامة بلقاء تسجع، وتروح هى هاربة فتعتلى قمم النخيل، وتلتقط حبات الرطب من عوسجها، وتمد كفها فيسكن عصفور زاغب راح ينقرها بمنقاره المدبب فيرعش جلدها ويأخذها إلى مخمل الدفء. تنبهت إلى وجود الشيخ فوجمت لحظة ثم عادت تسجع كاليمام...

غيّبتها عباءتها فحجبت جسدًا جميلاً.. حجبت معه مشاعر تخشى أن يكشفها بعينه المنطفئة.. لكن السكون الذى حط على المكان خافت أن ينقل صدى القلب فى نبضه الحى كما ينقل حركة الهواء "زقزقات" الطير، فصخبت..

قفز قلبها.. وخيالها يدعوها إلى توق المقابلة.. الأمر قرب.. اليوم أو غدًا ويتجلى أمامها وبإذن زوجها ورضاه الكامل..

خافت من قلبها أن يرسل رنينه الضاوى فيكشفها..

انقلبت الموجة وبانت خبيئتها.. حين علمت بالأمر..

حقق الشيخ مطلبها، واستكان لها.. داهمته بجسدها فترنح..

والعجوز التى باتت طيّعة وكريمة ولبؤة.. سعت حتى أتت به.. على هواها.

ما الذى تدبره العجوز، وأية مؤامرة تُحيكُها؟

كان الشيخ يراها فى عباءتها فيمنَى نفسه بها.. تظل عيناه راقدتين عليها حتى تطردهما لفتة مفاجئة أو نظرة مؤنبة.. لكنها لا تبخل ببسمة.. تروح وتجيء على وجهها.. كفاه بسمة تسحب الشفة، وتظهر الفضة، وتحدد الأنف وتجلو.. الوجه.. فيظل رانيًا وتابعًا للوجه حين يبتسم، والجسد حين يتمايل.. هل اكتفى.. أم يطمع فى المزيد؟ وأنىّ له؟.

تميل إلى الفراش، تشغلها هواجسها، وحسها المشبوب فى داخلها تصطلى به.

مازال عقلها لا يصدق أنه سمح بالدرس..

.. كان الأمر بالنسبة له كمن يتردى من شاهق.. لكنه لا يملك سواه ولا يقوى على إفك جديد ينال قدرته! ومن سيعصر ثمار اليناعة سواه... تمنى لو ترضى عنه! أن تدعه يقربها، يفك الخبيء فيها، وينحت المكتنز.. كفاه ما فعل... وكان قبلها – وإن طارت الرقاب – لا يسمح بلفتة، أو بصوت يعلو فيسمعه رجل أو حتى غلام..

لكنه فعلها راغمًا وباحت عيناه بالمسكنة..

تعلم أنه يطلب الرضا.. ويحلم بتفكك أعضائهاعلى لمسات أصابعه.. لكن الشيخ الذى كأنه اشتراها بماله خجل، فلم يعد يأتى إلى حجرتها، فأراحها.. هل زاد انكساره، أم تعطلت أعضاؤه!

وتنهدت.. من لها برجل حقيقى تلاعبه ويلاعبها، ويوقع على جسدها توقيع الأسنة..

العجوز نفسها تشتكى منه.. لم يعد يذهب إليها هى الأخرى.. فأين يذهب؟

أتراه تزوج من أخرى وأعرس بها فى بيت آخر؟ أتراه فعلها خفية؟

ضحكت وهى ترنو إليه فشهق.. ليس فى الحب ملامة.. والأسر فى الحب قيد مرغوب.. لكنها تتمنع وتُمعن فى قيدها..

التفت فى حركة أخذت جسدها فى زمة الثوب فتحدد.. ونترت أعضاءها، وطيّرت ذيل ثوبها.. لعله يرى فينهض وينضو عنه برده.

كادت تبوح صارخة بوجعها وهى تتمدد أمامه، وهو ينظر إليها فى ذهول.. كلما هم أنبّته عينها فيكمن.. طال التأنيب والكمون حتى لم يعد يجدى معه العشب أو الدهان.

.. طال الأمر.. وتحول شعر لحيته إلى شوك يلسعها فازداد تأبيّها.. وطال جوعها.. هذه البنت الحرون!..

كان قد خفف من تحفظه، فقل ضغطه وأباح ما كان ممنوعًا ومحرمًا.. لا ينسى أنه واحد من رجالات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنه يمسك العصا عند كل أذان، يدفع الناس إلى الصلاة، وإن أراد الإساءة كتب عن البعض أنهم عصاة، لا يرتادون المساجد، مع أنه كثيرًا ما ضُبط يتجول فى الدروب ولا يصلى.. بحجة تتبع الهاربين من الصلاة.

سمح بالراديو، اشترى واحدًا جديدًا من سوق قابل بجدة، يابانى الصنع.. تغاضى عن الأغانى.. وطالبها بخفض الصوت فلا يحق أن يتعالى صوت المغنية وهى تغنى عن الهوى وأسراره والليل وآهاته، فصوت المرأة عورة، والموسيقى مزامير شيطان... واستسلم لرغبتها وهى تسحبه من أذنه كجرو

صغير ليستمع إلى ما تبثه إذاعة البلاد من أغان لمطربين ومطربات في البلاد وخارجها..

ويصرخ في لوعة من أفلتت منه القوة

- لكنني آمراً.. يا بنت الحلال!

وتدير ظهرها وترسل شعرها فيحيط وجهها في ضوء يذهله.

- كن آمر في الخلا.. البيت لا..

وتهتز مع نغمات طلال فتكويه هزاته.

- ما أدرى.. ما يعجبك في المخنث هذا!

تدورفي إيقاع يصاحب النغم.. تتطاول فتتبدى كالفرس الحرون.

تتمايل.. تنحني وتنفرد.. تحبك الثوب فيشهق.. تضغط الصدر وتتكئ فوق رأسه.. وترنو إلى البعيد.

لا يملك إلا أن يدعها.. في لهوها فصغر السن يحكمها، وحالته لا تسر. ظل يردد.. في همس لا يبين.

- أوقعني نزق الكبار.. ولله الأمر..

غض الطرف عن المجلات المصورة، لم يقو على طمس معالم الصور أمام تنمرها، اكتفى بفصل الرقاب، لكنه كان يخادع نفسه ويترك صوراً عارية ويدّعي غفلة فيه..

كانت تغيظه وهي تمسح بيدها على صورة الفتاة طيّ المجلة وتقول في اشتهاء صوت صاد:

- أنا الأجمل. .

هدلت الحمامات، وطارت في جنبات البيت، وراحت الفراشات تبث الحب والجمال، اكتنزت العراجين، وفاحت المستكة بنوّارها.. وظل كما هو..

حتى ساءت حالته.. فتلقفتها العجوز... وفردت ذراعيها لها.. تجاوزته رامحة... باحثة عن مطر ينهمر تغتسل به وينديها... أو تحتجزه لليلة قمرية في المنتصف وتسكب فوقها مطر القمر الذى ينزل من سمائه فيلفها فى خيوطه وتستكين فى راحته، وتأخذها دعة رحيمة إلى عالم تغفو فيه القلوب وتنام.

***

قال صلاح وبسمة تطوف بوجهه..

- بعد صلاة الجمعة سننطلق إلى الخلاء.

لم يعلق "مختار" وبادره "صابر" بدهشة كالسخرية

- أى خلاء؟ كل ما يحيط بنا خلاء.

- البادية.

كان "صابر" قد سمع عن الزيارات السريعة إلى أطراف البادية. لكنه لم يذهب، واكتفى بسماع مشاهدات صلاح المتوالية.

لم يلتفت إلى ما يردده "مختار" عن بحثه عن العجائز والعبدات، واستفسر فى تأفف عن السبب.

قال صلاح فى إغراء:

- بعد الصلاة يقيمون سويقة يعرضون فيها منتجات أهل البادية... وبعض أغراض النساء.

ضحك مختار وهو يطفئ سيجارته فى ماء الحوض الراكد.

- ألم أقل لك؟؟

تجاهله وواصل حديثه فى جد

- ستجد هناك بعض الوجوه التى تعرفها.
- وكيف نذهب؟.. على جمل!
- لا تسخر.. سنأخذ دباب الفلسطينى.
- أى فلسطينى؟
- موجّه البدنية.
- صاح فجأة: صائد القرش!

اعتذر "مختار"، فالجمعة يومه، يغسل ملابسه، ويحلق لحيته ويد شاربه، ويتعطر.. ثم يخلو إلى نفسه.. محتضنًا الراديو، منصتًا إلى أم كلثو سابحًا مع نغمات القيثارة فى شفافية.

ويختم خلوته بقراءة خطاب من أسرته أو يعيد قراءة الخطاب السابق. ينهض على مشارف المساء، فيغسل وجهه ويقطر فى عينيه ليدار الاحمرار الذى أصابها.

••• فى الطريق والدباب يدور حول الكثبان ويعلو الهضاب شاهد عد من الوجوه التى يعرفها... رجالاً، وطلبة، وأصحاب حوانيت. ورأى عا مقربة منهما عربتى جيب متباعدتين، فى غمرة العربة بجوار السائق، يله امرأة، أو اثنتين، وفى الخلف يحتشد الصغار، صبية وبنات.

وهو يحتضن صلاح من الخلف، اطمأن إلى الطريق وأتنس بما يرى.

•• على حافة السويقة كانت المرابض. تلوك الجمال الأعلاف وتجترها.. ثمة خيمات خالية من الجدران ومكتفية بالأسقف الممزقة.

مقهيان بلا أرائك.. يتناول الرواد طلباتهم جلوسًا على الأكلمة ومقعين. ثمة جماعات وأفراد فى الأركان والوسط. عدد من المفارش العريضة رصت عليها بضائع من صنع البدو..

أكلمة ذات طرز مختلفة... عبوات من السمن البرى، أعشاب صحراوية، وألبان مجففة.. كالإقط، ووبر محلوج وجاهز للنسج.. وحبات كروية على هيئة الدوم.. وغيرها..

يدور بعض الصبية الكبار حاملين برّادتهم الصغيرة.. يعرضون الماء البارد، والزجاجات المثلجة.. نصبة صغيرة مظللة بملاءة لبيع أطعمة سريعة يغلب عليها الخبز، والبيض والفول والجبن، والبصل، وقرون الفلفل الحار.

تهب رائحة سائرة فى المكان منبعثة من حزم نباتية لها رائحة نفاذة تقبل عليها النساء..

قيّد صلاح الدباب فى نتوء خشبى.. أحكم السلسلة، ووضع المفتاح فى جيبه، تجوّل على مهل، أهمل صخب البائعات ورمى بصره. لم تعلق عيناه بوجوه عرفها فى زيارات سابقة فتبرم.

ظل يتجنب الاقتراب من هذا الولع الطارئ.. وسأل نفسه.. لم كل هذا الحرص على حضور سويقات البوادى؟!اكيف يواتيه جسده وطاقته تُهدر فى طرق موحشة؟ كان إذا أزف الموعد يجد نفسه قلقًا، كأنما علائق خفية تستحثه علي التذكر وتستعيد صور المكان العالقة.

ويظل شارد البال يميل برأسه فى سكون باد، كأنه يصطاد صوتًا يأتيه من بعيد..

أتكون النداهة؟ أتتخفى فى أجساد النساء وتدعوه إليها كى تراه، ويراها عن كثب فى غفلة من عيونهن، وتحت عباءاتهن.

خفقت عيناه فى ضربة مباغتة، شد انتباهه حركة جسد يتمايل فى عباءة سوداء مرسلة، انحنت المرأة وقلبت عددًا من زجاجات العطر فى إمالتها التفت العباءة فى إحكام متقن كأنه مقصود فلاحت من الخلف مجسدة تمامًا.. طار صوابه.. كاد بؤبؤ العين يفلت غضبًا..

لم يخطر بباله أن الحواس تتراسل فتحس المرأة بعين تلسعها فتعتدل وتدور عيناها تبحثان عن مصدر اللسعة..

فردت جسدها، فبدت قامتها ذات بنيان فارع وممشوق.. راحت يدها تتقى وهمًا ممدودًا، فأحكمت ثوبها، لكن العباءة التى استعصت قليلاً أبرزت صدرًا بازغًا، شهق صلاح لمرآه.

كانت بدوية عرفها من زيها... المنديل الخفيف الذى يشف، المزين بأزرار صفراء، وكُور ملونة من الترتر، ورسوم عسجدية، وألوان زاهية تطل من فتحات العباءة.

استدارت، وراحت تنتظر..

تشعر أن احدًا يترصدها، أربكها وأبطأ أنفاسها، ثقل الجسد، ومشت الحرارة على الجلد، واعترته تنميلة راعشة...

ماذا أصابها؟.. ما الذى يحدث لها؟.. وهذا الفضاء الواسع الذى تخب فيه ويدعوها كى تتحرر من ملابسها لتبترد.. وهذه الرائحة التى تأخذها بعيدًا لتراه مجسدًا أمامها..

وانتفضت مبتعدة حين رأت عينيه ترقدان عليها وتأخذانها فى وهج مضىء كأنه ومضة الجمر..

رمح وراءها فشده "صابر" فى قوة مبتعدًا به عن المرأة.

- ستجلب الفضيحة.

كاد يتوسل إليه وهو يقول:

- دعنى أشم الرائحة.

- أية رائحة؟

تهدلت شفتاه فبدا الفك هاطلاً..

- رائحة الأنثى.

تأفف فى ضيق باد لاعنًا اللحظة التى وافقه فيها على الحضور.

جذبه صلاح من طوقه – الأنثى تذكرك بالأنثى.

أدرك أنه يقصد زوجته واحتار فى أمره

- ما دمت لا تقوى على بعدها.. فلم لم تأت بها معك كما فعل غيرك!

- العيال.

- اصطحبهم معك.. فمعظم المتزوجين معهم أولادهم.

رمشت عيناه، وانعقد غيم شاحب

- فى مدارس خاصة.

قال فى تبرم واضح كمن ضاق بالأمر كله.

- أدخلهم فى مدارس الحكومة

سهمت عيناه بعيدًا – العيال مجبنة ... ومهلكة.

وعى الحالة فاشتد عليه لائمًا

- أخشى عليك من حركة مجنونة.

ران عليه هدوء طارئ وعهده به أن يصخب فى ضجة، وبدا كأنما يحادث نفسه:

- مهلكة!.. من يضمن ألا يتغير الأباء أو ينزلقوا؟
- أو تنزلق الزوجات.

جاءت عبارته سريعة كمقذوف طائش، فلام نفسه على تسرعه خاصة وهو يرى على وجهه الدهشة.. والخوف معًا..

... عرجا إلى المقهى..

احتسيا الشاى، وأشعل صلاح سجائره.. وظلت ندبات الخوف عالقة بوجهه.. فران عليه صمت حزين..

وصلته ضجة، تنبئ عن أصوات تختلط.. نهض ومضى يدور فى الرحبة الواسعة..

ثمة أكلمة من الوبر وصوف الأغنام وشرائط زاهية من أقمشة تيلية. شدته قطع صغيرة من النسيج بها رسومات صحراوية.. الجمل، النخلة، الصخور، التلال، السماء، والهلال... تتداخل مفردات اللوحة فى تدرج لونى جميل ينبئ عن فطرة تلقائية فى رصد المرئيات.

تناول قطعة أعجبته.. اللون السماوى ينزل فى تؤدة على المساحة فيجور على الرمل ويأخذ صفرته على حين ينفض طائر صغير - كالقبرة - جناحيه وكأنه يستيقظ لتوه.

شغلته عيناه الواسعتان، وحركة العُقد على صدرها وهو يتماس مع اهتزازات الصدر.

- كيف صنعت هذه الألوان؟
- أعجبتك!

صمت فبادرته:- إذن خذها.

رأت فى عينيه ترددًا، فأحكمت شالها وقالت ويدها تمشى على الأكلمة وتعدل أطرافها.

- لو طمعت فيها وأخذها غيرك.. ندمت

تعجب صابر من المرأة وأدهشه أن يسبر حسها الفطرى ما يعتريه من تردد فى مواقف الشراء..

تغلب على خجله وسأل

- بكم؟

- لك بخمسة.. ولا تزيد فى الكلام.

دفع الريالات وطوى القطعة وأحكمها بخيط من النيلون... شيعته بنظرة طويلة قبل أن تهيئ نفسها للحديث مع امرأة راحت يدها تندس بين العُقود المختلفة والحقائب المزينة بخرز ملون..

فوجئ بصوت مزاحم فالتفت..

كان "صلاح" يقف فى الطرف المواجه للمرأة، وبيده عقد يختبر حباته، ويتساءل ووجهه مشرق ببسمة رائقة.

- كهرمان!

تنوعت العقود ما بين الكهرمان بدرجاته الأحمر، والأصفر وبين الخرز، والفيروز الغامق والشفاف، وخطوط الخرز المتداخلة فى رهافة الأسود والرمادى.

لمست المرأة صدرها وزهت بعينيها، وصلصلت حبات عقد الكهرمان.

- هذا زينة النساء.

بادرها قائلاً فى جسارة

- الجميلات

اختلج الوجه وعلا صوت من الخارج

- البدويات فقط.

استدارت وقالت:

- أفضل من عقود الذهب.

- "حريم" المدن ما يعرفن فضله.

لزمت المرأة الصمت لكنها كانت تتابع الحديث... فلوحت للبائعة بعقد اختارته. قربته من وجهها وتخفت وكشفت عن وجهها وأمعنت النظر، ووضعته على صفحة الخد كأنما تقيس درجة التناسب فى اللون، ولياقته.. العقد من الفيروز.. بدرجاته الغامقة وبلونه الأخضر المجزّع... لبسته المرأة، فتدلى على الصدر متباهيًا، متناغمًا، والخرزة الوسطى تتأرجح فى فراغ الصدر فى متواليات لها رنين هامس.

علقت عيناه بها، وظل صلاح يردد..

- أبغى واحدًا كهذا.

اختارت له واحدًا من الكهرمان الأحمر.

- هذا يطرد الأرواح الشريرة

وقلبت بين يديها عقدًا من الخرز الملون، حباته صغيرة وألوانها زاهية وشفافة.

- وهذا يجلب الأرواح الطيبة.

فلت صوت نسوى خافت وراعش.

- عندك عقد يجلب الحبيب!

تراخت العباءة حين انفرجت الشفاه فى بسمة لها صوت كالهسيس وانعقد الحياء فى العيون المسبلة، وخففت المرأة فى حديثها.. وطلباتها ولم تُعد تجادل فى السعر.

ولم يطل صلاح النظر إلى العقد الذى يجلب الروح الطيبة وهو يتدلى من فوق الشماعة.. فى زهو وألق..

***

ولجت قدماه البيت..

استقبله الشيخ فى ود.. أقبل عليه واحتضنه.. قبل الكتف وشب على أصابعه وقبل الأنف.. وراح يرحب به ويهلل له.. بدا البيت هادئًا وجميلاً، ولمسات المرأة تتجلى فى مساحات الخضرة، والعناية بالنباتات وتنسيق التعريشة، والنظافة التى فاقت تصوره، والروائح التى جابهته منبعثة من مباخر متقدة... جميل، لكنه لا يقاس ببيت "الغامدى". جلسا على مقعد مستطيل مجهز بحشايا ومتكآت..

وأقبلت العجوز..

قدمت دلة القهوة وطبقًا ممتلئًا بالتمر وقطعًا من الحلوى.

الوجه – الذى يعلمه – مستور بشال خفيف.. غطت كفها بثوبها وسلمت.

انسحبت على عجل وهى تنبهه إلى تمر المدينة الذى يجلو الصدر و"يضّوى" العقل.

ثمة حجرتان متسعتان، وتشغلان مساحة عريضة... إحداهما للبنت والأخرى للعجوز. يتواجهان، بينهما ممر ضيق يفضى إلى حجرات ثلاث، يشغلها الأبناء حين يأتون. ثمة حجرة نائية للخزين بها جرار السمن والجبن وأجولة الأرز والطحين وغيرها من مستلزمات البيوت وهو لصق المطبخ لديه كما أخبرته العجوز..

على أجناب الحجرتين شرفات واسعة تطل على الحوش، مسيجة بمقرنصات جميلة وجدائل من الأفرع المزججة...ثمة درجات خشبية يحيطها سور خشبي مطعم بأشكال جميلة... في الطابق الثاني امتد سور من الأخشاب، والأفرع المجدولة، والطاقات الصغيرة التي تسمح بإطلالة الرأس.. في حين يحجب السور حركة الأجساد وتحررها.

تعلو الحجرات عن مستوى الحوش مترًا ونصف المتر فيصبح للجلوس في الشرفة متعة محببة...

تعجب أن يكون للحارس مثل هذا البيت الجميل.. قد لا يضاهي شيئًا بالنسبة لبيوت الكبار والأثرياء الذين يبنونها ثم يفرون منها إلى بيوتهم ذات الطراز القديم...لكنه بيت يدعو إلى الزهو بالمقارنة بالبيت الذي يقطنه..

امتد الحوش أمامه وترامى. ثمة مداخل مغلقة تفضي إلى مرابض الإبل أو الأغنام.. حتى يمكن لأهل البيت أن يشرفوا على "الحلال" إن لزم الأمر.

شد نظره شجرة المستكة تفيء بظلها، ونخلة عجوز حولها فسائل صغيرة، وأعواد الريحان والنعناع تطل من حولها..

هبت ريح طيبة نادرة فحملت رائحة طيبت صدره وأنعشته..

- بيتك جميل يا شيخ

صب القهوة وهز الفنجان في يده ..

- المرأة ريحانةالبيت.

وامرأتي تحب النظام.. و"الحسانة"..

أدرك "صابر" المعنى فابتسم..

- بالله عليك "ليش" تهتم البنت بعلومها..

ما الذى يمكن أن يقوله؟ وبم يرد عليه وهو قادم لأداء مهمته مرغمًا.. مهمة تكتنفها مخاطر غير متوقعة.. يضع نصب عينيه نصائح مختار.. استمع ولا تتكلم.. لا تخرج عن المنهج: لا تصطادك البسمة، ولا تغريك اللفتة.. الضعف من مفسدات القلب.. والغيرة أيضًا.

- أمر طيب
- ألا يكفيها أنها زوجة
- ما دامت تحب العلم..
- والله.. لقد أرحت أهلها منها.
- عمل تؤجر عليه
- من يتعظ؟
- دعها تتعلم.

مسح شعر لحيته بيده، وحبك غترته، ومال عليه قائلاً .

- تدرى الأمر طيّ الكتمان

رد عليه فى ضيق مكتوم خشى أن يلمحه فيغضب.

- الله المستعان.

... نادى الشيخ على العجوز.

سبقها عطرها، وسارت أمام صابر فى اتجاه حجرة البنت.

وظل هو ساكنًا فوق المقعد، تروح عيناه إلى بعيد.

لا يغفل الناظر إليه ألمًا يمضه وهو يشد وجهه.

قدمته العجوز وانتظرت.. رمقتها البنت خفية فانسحبت...

رنت إليه.. حاسرة الوجه.. الوجه الذى رآه سافرًا للحظة وهى تفتح البيت، وتشد مزلاجه.. لم يخل عليها حيلته حين رمى بالقلم ليتباطأ ويتملى...

كانت ترتدى ثوبًا أزرق اللون مقصبًا بخيوط صفراء لامعة.. وشالها الزهرى الخفيف يلم شعرها وينسدل على الصدر.

بدا الوجه بهيًا.. تعتريه حمرة فى الخدود، وتختال الشفتان بامتلائهما ولونهما الذى يغازل العيون.

خطف نظرة.. احتواه المكان وبهره الجسد، واندهش أن يحوز الشيخ كل هذا الجمال.. لكن الغزال يتمرد على القيد ويهدد القناص بالفرار..

لمثلها يخضع القلب، ويمتثل لأمر الهوى!..

انتحى جانبًا وجلس.. من الباب المفتوح لمح العجوز وهى تتحرك خارجة من حجرتها.. أو داخلة، تسرق لفتة مفاجئة.. لعلها تطمئن أو تنفذ رغبة الشيخ.

رأى سعفات جميلة معلقة على الحائط، وصقرًا محنطًا بمنقاره المعقوف الحاد، وقطعة من نسيج وبرى للحرم المكى.. ظهر فيها الطائفون، وباب الكعبة ومكان الميضأة وحمامات بيضاء تحوم فى أفق النسيج السماوى..

شده كليم جميل الصنع فى حجم سجادة الصلاة معلق من أطرافه على الحائط المواجه للشرفة.. به رسومات جميلة لجمل صغير وجرو بدا يصىء، ويتمسح بأرجل الجمل الذى تدلت رأسه، ومط شفتيه ليلتقم أوراق الكلأ النابت فى مساحات قليلة..

أغراه المشهد فدقق فيه.. كانت الأعناق مفصولة، يحدها خط طولى كأنه يفصلها عن الجسد.. فتصوير الكائنات الحية غير مرغوب فيه ومحرم، واجتراء على صنع الله وخلقه وابتداع مشابه لصنيعه.. ولأن الكتب التعليمية تتضمن مثل هذه الكائنات الحية ومنها البشر فإن يدًا غليظة أجهزت على الرقاب وفصلتها.

.. راعها خجله، وتداخُل أعضائه.. كأنما يخشى مزاحمة تدهمه..

خطت خطوتين وأخرجت من ثلاجة صغيرة عبوة من الكولا.....

قدمتها إليه.. وهى تواجه قطعة النسيج وترنو إليه..

- أعجبتك!؟

انتفض لصوتها الجميل الذى يحمل غُنة تشى بالشجن..

حسدها على النعم التى حباها الله بها..

- أستاذ...

رنا إليها... وانتظر

عليه أن يجيد الاستماع، ويتخلى عن الرغبة فى المحادثة وطرح الأسئلة، ويظل واقفاً عند الحد الفاصل بين انفراجة الشفة، والتقاط الصوت..

هز رأسه ولزم الصمت..

لم ينظر إلى صدرها وهى تنحنى عليه، فحزنت.. لمح ذلك من غضبة فى عينيها.. جلست على حافة المقعد وأطاحت بخفها.. القدم كبيرة وممتلئة، ربما لا تناسب فى مقاييسها تناسق الجسد، لكنه قد يوحى بثراء عضوى يبهج ويسعد كما يقولون..

نهض ومرق خلف المقعد الذى تجلس عليه... ومضى تجاه الباب الموارب وأحكم فتحه.

طالبها بإخراج الكتب

أجابت فى صوت له شقاوة المراهقة

- أية كتب؟

- منهج العربى..

قالت وهى تمعن فى الغضب

- أحرقتُها

اندهش فاحتد..

- أحرقت الكتب!

- نعم.

- إذن ازهمي على العجوز.

ازهمى.. كررتها وهى تحدق فيه.. تختبر صبره وتخاتله..

- أغضبت؟

- أنت تعلمين لم أنا هنا؟

مدت يدها فأخرجت كتابًا من طية عباءة مطوية..

- بغيت أتباسط معاك

وهو يمد يده لتناول الكتاب، تشبثت به حتى كاد يتمزق.

.. ما الذى يمكن أن يحدث فى المرات التالية.. فى أول لقاء.. كشفت عن نفسها.. باحت حركاتها بما يعتمل داخلها.. ما الذى يمكن أن تفعله؟... ماذا تخبئ هذه البنت فى المرات القادمة!.

خشى من تلامس يساء فهمه فزجرها قائلاً

- إلى الدرس

أخرجت فى همّة – أدهشته – الكراسة والقلم، والمسطرة.

فتحت كتاب النحو على الدرس الذى تغيبت عنه.. ودفست إصبعها فى أول الصفحة.

- النعت.

اختبرها فى تدريب نحوى سريع.. قرأت نصًا شعريًا..

كان صوتها – مع أخطاء القراءة – جميلاً وكأنها تدربت على توقيع الحداء..

مرت الساعة ثقيلة الوقت كأنها دهر بطوله..

***

... تختال البنت أمامك، وتخايلك.. تخادعك وتقتنص صورة مغايرة، تمعن النظر وترسل عينيك تستطلع وتخبرك، أخذتك الهيئة التى تجددت فرحت تفصل الصورة المستدعاة عن الجسد القائم أمامك فى لدانته وامتلائه.

أجهدت نفسك كى تبعد خطيبتك عن هذه الهيئة المختلسة وأنت تغوص بعينيك فى ثراء الجسد، ويكاد قلبها يرسل إليك إشارة التحذير لترتدع.. يطالبك أن تقنصه وتترفق به، وتستمع إلى نبضه الدافئ فيدفئك، وتكتفى به.. فى غربتك.

... وتأخذك النمنمات.. تكويرة الشفة، حمرتها ورعشتها، زمتها وبسطتها.. وتخالها تحذرك، وتشهد عليك.. وعلى ضعفك الذى يغلبك، ووهنك الذى اعتلاك فأرهقك.. من أتى بشعرها فى هبّة أزاحت الشال الخفيف.. فانسدل حتى أعلى الخصر..

واستدعى نسيمًا رقيقًا هفهفه وبعثره.

فانبرت الأصابع الطويلة النحيلة وأمعنت فى تهديله..

والصدر الذى تراه يتسع بما لا تتصور ليس صدرًا لخطيبتك، فلماذا ارتسمت ملامح الوجه وغاب الجسد.. يضايقك أن تكون البنت قد شاغلتك، وتمثلت خطيبتك..

وأفسحت صدرها وقبابه البازغة.. وهى النحيلة، جميلة التقسيم والمحيا..

وجهك المخادع دخل وجهها الأبيض وزينه، لوّنه بسمرة محببة، واتكأ على الكتف وحرك الذراع والأنملة التى لاحت نافرة فى الإصبع السبابة، كأنها نصل حاد يجابهك فى حسم ويحذرك..

ما أغرب رعبك! كأن داهية حطت عليك.. انتفضت، حدقت فى البنت طويلاً حتى كدت تخيفها، وتظن بك الظنون..

نهرتها، زجرتها، حذرتها أن تتلبس بوجهك المحبوب.. فتلوثه، أو تكدر سمرته..

لن تغيب عنك نظرتها إليك..

كانت تدعوك أن تصحو من غفلتك وتعيش لحظتك التى أنت فيها.

وكانت تخنس فى نظرتها إليك وتبتسم فى دهاء يتبدى من وهج العين.. وتطوح بشالها.. فيلم شعرها، فينسلخ وجهك الذى تبدى.. لتعود – كما هى – سافرة ممعنة فى سفورها.. فترتعب.. ويبتعد عنك النوم ويلازمك الوجه.. بالجسد الملتبس.. وتفتقد راحة البال.. وتنقلب حالتك التى لا تخفى على زميلك..

ألا يكفيك وجهك الذى يتأبى عليك فتروح تنشغل بهذا الجسد الذى ينز شهوة، ويتشقق جلده عن متع مكبوتة، وعيناه عن رغبات مدمدمة.

هل تفعلها فتقع فى المحظور، وتبوء بذنب يلازمك، وخوف يطل عليك صباح مساء!.

ثم تسقط إلى القاع.. وتنتهكك الألسنة.. ألا تخشى أن تعلق من رجليك، أو تساق إلى قاض يجلدك!!.

ألا تعى أيها المرتعب الفخّ الذى تنزلق إليه برغبتك التى تسرها وظللت تداهنها وتتعلل برفض كالقبول!

التمس الرضا، وابحث عن القوة وابتهل.. أنت القوى يا الله.. وأنت الرحيم والرحمن. أمنن على عبدك وقوه، وابعد عنه وساوس الشيطان، وهواجس النفس وتقلباتها.

***

انج بعينيك عن الجسد... أنت لم تجربه فابتعد.. قالها كحكيم.. كان قد كشف مخاوفه لمختار فحدق فيه طويلاً حتى أقلقه ثم قال له..

- لن أكرر ما قلته لك.. أنت تخوض تجربة فرضت عليك، فكن قويًا، وقم بواجبك، وتسلح بقيمك.. ثم انسل حين تطمئن.

ودفعه بكفه فى حدب دافئ كى يمضى إلى درسه الثقيل، وأثار حميته بابتسامة أسعدته، همس وهو يخالس الحائط القائم بين الدارين.

- لا تسمح لامرأة – غير خطيبتك – أن تضع قدمها فى معبدك، فتطرد أمنك.

لم يهمل النصيحة، ولم يغب عنه لحظة الموقف الذى يقف بين حديه..مراهقة تزوجت ولم ترتو، وعجوز غلبها الزمن وتتمسك بذيوله..

كانت العجوز تحرص على إظهار انفعالها.. غلبها فعجزت عن كبحه. كلما التفتت طلت ابتسامتها مشجعة. يتجاهل غمزة العين، وحركة الحاجب، وتدرك ذلك فتتجاهله كأنها تباركه..

اقتحمت الغرفة فجأة فوجدته نائيًا بنفسه فى طرف المقعد حتى كاد يسقط، والبنت امامه تتكئ على الطاولة.. رأسها بين يديها، وصدرها بارز يكاد ينفلت.

ظلت البنت على حالها لم ترفع لها رأسًا..

حين رأته يتداخل ضحكت عاليًا.. ومالت، فلامست رأسه..

وضغطت بطنُها صدره.. ومدت يدها وفتحت "روشنة" صغيرة فانسكب الضوء من الحوش فأغرق وجه البنت فأطبقت عينيها.

اتجهت إلى الراديو ففتحته، وأدارت مؤشره على أغنية بدوية لها إيقاع ساكن ورنين – كالأنين – يخطف القلب.. التفتت بجسدها فى حركة مفاجئة وابتسمت وهى تردد النغم.. وخرجت..

تجرأ فصفّق عاليًا، فأزاحت وشاحها ولمته فبدت مساحة العرى فى ظهرها متسعة.

أحس بثقل يضغط عليه، وبقسوة فى عينيها.. وإن جاءت كالملاعبة.. قلبت البنت أوراق الكتاب، وانحسر ذراعها فلمع.. لا أثر لمنابت الشعر.. ثمة علامة قديمة.. ليست كالوحمة، لكنها أثر قديم للسعة شديدة.. لم تخف سمرتها ولم تحاول.. لما تهدل الكم ازداد البياض وقوى لمعانه.

لم يسمع خطوها مع أن قراءة البنت خافتة تكاد لا تبين.. فوجئ بها تشد فتحة الباب، ويطفر وجهها بالبشر. على يدها صينية الشاى، عليها البراد، وكوبين مضلعين وعودين ناضجين من النعناع.. وحبات من اللوز..

وضعت الشاى فوق المنضدة وقرصتها فى خدها وانسحبت مهرولة.

امرأة لا تيأس، اغتنمت فرصة سنحت، وأعدت طقسها وسعت للدخول فيه..

لاحظ "صابر" أن البنت بدأت تقبل على الدرس، وتعمل على إراحته باستيعابها، واختزلت الوقت للمخاتلة، أو المداعبة.

وشمل الوجه الأبيض سكون مجروح، وراحت عيناها تناجيانه..

وهو يخالس النظر فى وقفتها أمام المرآة.. صاد رعشة فى الأنف، وهزة فى الشفة وانكماشة فى جانبى الفم.

يغلق الكتاب، ويردد أبيات قصيدة تتلوها، ويقلب الصفحات، ثم يخرج منديله ويعصر وجهه ويجفف عرقه.

لا تحملها ساقاها، تتحرك فى خطوتها كأنما تنوء بحمل يثقلها، أو أن رعشة أصابتها فحجلت كالمخدرة.

اصطدمت بالشاى فانسكب.. أصابته لسعة قوية.. وبلل الشاى ثوبه.. أمسكت بمنشفة وراحت تضغط على البلولة علها تمتصها..

واندهشت أن تصدر منه صيحة مفاجئة تنبئ عن ذعره وتكشف ضعفه..

جاءت العجوز مهرولة.. تستفسر عن سر الصيحة، وتطمئن على الحال.. وصلت مسرعة فلم تهتم بنفسها، ولم تستر جسمها جيدًا فلاح الترهل فى أجزائه، وكشف عن غضون واضحة..

فوجئ بالشال ملمومًا على الكتف، والرأس حاسرة، والشعر المحنّى لا يخفى منابت الشعر البيضاء.

رأتها منحنية عليه.. أثارتها انحناءة الجسد وتدويرته، شدتها وتقدمت.. واحتد صوتها وهى تطالبها أن تأتى بصحن به ماء، وشرشف صغير.. ومالت عليه.. غمست طرف الشرشف وعصرته، وراحت تدعك مساحة الثوب التى طالها الشاى.. كاد يغمى عليه وهى تضغط بجسدها كأنها تتكئ وتعتدل ثم تمرر يدها فى حنو.. وتمسح الثوب.

همست ويدها لا تكف..

- طيرت صواب البنت..

اعتدلت واقتربت من البنت التى بدت غضبى لقربها الواضح منه.. لا تنخدع بقولها، ولا يخيل عليها ما تفعله أو تهمس به، لا يفوتها مسار عينيها، ولا الوهج الذى انطفأ.. أية قوة تبث الحياة فى الرماد! تميل عليه كأنها تريد أن تأخذه، وتدّعى خلقًا غائبًا.. ثم تستجديها وصالاً خاطفًا..

يرتجف جسد البنت، وتحتد عيناها.. والعجوز لا تزال قريبة منه.

- تُجن حين يغلبها العطش.

أشار صامتًا إلى الماء، واتجه وجهه نحو البنت فامتعضت، وأدارت وجهها..

لزم الصمت، وضحكت العجوز وهى تدير عينيها بينهما..

- أنت تبعد كثيرًا.

وأشارت إلى البنت، والمنضدة، وطرف المقعد.

- كيف تفهم البنت درسها؟..

لم يفهم كثيرًا، فمط شفتيه وصمت.. ومسح الثوب بكفه.. واعتدل.

- الدرس..

علا صوتها قليلاً.. فاتجهت البنت نحوها وانتظرت

- .. أن تجلس بجوارها..

ابتسمت وهفّت بشالها فازدادت مساحة الصدر عريًا.. ملابس البيت التى جاءت بها مسرعة.. لا تحجب الكثير فأحنى رأسه..

- عينها فى الكتاب

و.. عينك عليها.

وراحت تزيح المنضدة، وتقربها منهما..

حركت المقعد الذى يجلس عليه حتى كاد يلاصق المقعد الآخر.. وقالت بعد أن مهدت جلسة المدارسة.

- كيف تسمع منك وأنت بعيد؟

تجاسر ومد عينيه فى إمعان.. ثم صمت.. شعر بحرج شديد، لم يحدث له من قبل..

بعد أن انتهت كوّمت الصينية والبراد والأكواب ثم همست..

- كان يجب أن نغسل الثوب.

وتخانفت وهى تشيح بوجهها وتدارى بطرف شالها نصف الوجه..

- .. و.. أغراضك.

ثم تنهدت فى عمق وحدّة كأنها حبست أنفاسها زمنًا..

ربتت على كتف البنت.. وضغطت بإصبعها فساخ قليلاً فتوجعت.. غمزت بعينيها.. تشجعها.. وخرجت..

كانت البنت تنظر إلى العجوز بغيظ، تمنت لو تركت لها تصحيح خطئها.. لكنها تهتبل الفرصة وتخطفها، وظلت تتحجج.. وتحتك به.. وهى التى تجلس معه وتحضنه بعينيها، عجزت عن القرب منه، وتنظيف ثوبه.

كلما رأتها تلامسه تشتعل ويفور داخلها باللهب، وتكاد تزيحها وترمى بها خارج الحجرة..

تنفست عميقًا وتقدمت نحوه، أبدت أسفها، واقتربت.. وتعمدت قربًا لصيقًا، فمد يده وحجزها..

غضبت، وخطفت الكتاب ومزقته ورمت به خارج الحجرة وصاحت.

- إيش تظن نفسك!

علا صوتها فى خنّة باكية وجسدها ينتفض.

- ما تزيد على "بُوسعد" الكلاف..

رأى من الحكمة أن يكتم الغضب ويلزم الصمت... حتى يمر الوقت ثم يتخذ القرار..

أخبرت العجوز.. الشيخ بأن زوجته المجنونة ضاقت بمدرسها حين أنبّها على التقصير فى الواجب، فرمت الشاى فى وجهه وبللت ثوبه..

حدق الشيخ فى امرأته.. رأى سفور الوجه، وانحسار فتحة الصدر فقال محتدًا..

- وذهبت إليهما!

- وهدّأت خاطره

مسح لحيته، وفرد غترته.

- ذهبت هكذا!.

وأشار إلى الوجه،والصدر، والرأس.

- ألا تلوم زوجتك الطائشة..

- صغيرة وستتعلم

وصمت قليلاً ثم عاود الحديث وتساءل..

- تبسطت معه.. وتحدثت، وهدأت الخاطر..

ووجهك سافر، ورأسك عارية.

- إنه يعمل لدينا.

اشتد صوته:

- إنه يعمل لدى الحكومة.

أشاحت بوجهها، ورمت شالها حتى كاد يصله.

- من يعمل لدى الحكومة، كأنه يعمل لدينا.
- كنت تتحجبين.. الأمر سهل..

فردت جسدها على مقعد مستطيل، ونكتت شعرها المحنى.

- هل أتحجب عن السقاء.. وراعى الغنم..

ظل ينظر إليها مغيظًا..

قالت فى نبرة واطئة وباردة

- هو مثله.

***

لحقته الإهانة، ووصله المعنى.. لن يصل إلى منزلة الكلاف.. ولن يتسامح مع نفسه التى كلفته انزواءً أساء إليه.. ولن يتخاذل..

ما الذى يجبره على فعل شيء لا يرضاه! أهو الخوف من إنهاء عقده! أو هو الذعر الذى يفقده الصمود، واتخاذ رأى ينبع منه ولا يفرض عليه!!.

إن بقى على حاله فسيكون هدفًا سهلاً.. وسيسقط.. ثم يرمى به بعيدًا كما تلفظ النواة من فم جائع..

لن يرفع الرأس إلا إذا أمسك مُدية حادة ويظل يدمى بها نفسه ويسلخ جلده المرتعب، ويرمى به بعيدًا.. كى ينمو جلدًا جديدًا، يشتد بضوء الشمس وقوة المراس..

أنب نفسه كثيرًا.. وهى تمعن فى إيلامه.. وتجابهه كالفرس الحرون، وتتيه بجسدها وتروح تستنفر ضعفه لتأسره وتتعمد أن تحرقه.. وهو يتأبى.. لم يدرك إن كان التأبى جاء عن جبن أو قيمة.. اختلط الأمر وانبهم..

أحس بالإهانة.. وشعر بوحدة... وبعزلة.. كأنها اليتم.

أصبح الآن.. فى عينيها لا يزيد عن كلاف.. يعتنى بالبهائم.. لماذا سمح لنفسه أن يقبل ذلك ولو كان فيه النّبذ والإبعاد!!.

أهو يختلف كثيرًا عن زوجة عبد العزيز.. فى ضعفها ومهانتها..

***

••• أيها المرتعد لا تعطى الدنية وابتعد.

ابتعد أيها المذعور، انضضّ عنك ثوبك المبتل بضعفك وجبنك، وامض تجاه الشمس، واصطد شعاعها واصطل به.. علك تستعيد نفسك.

تترنح مشاعرك على كثبان الرمل الهلالية، وتسير بلا وعى، تتجاسر فتأخذك قدماك إلى الحواف والفجوات والأكمنة، تشتبك بجلبابك إبر صبارية، وأشواك نباتات برية..

تميل برأسك إلى البعيد.. لا ترى أفقًا..

سقطت السماء وقبضت على الأفق، وأغطشت التماعات السحب الرمادية..

•• فجأة تراه أمامك يتبدى..

كان الوجه الأبيض الجميل لأبيك..

وعمامته تزين رأسه..

ينظر إليك ويبتسم، تأخذك أسنانه البيضاء وهى تضوى.. وعيناه الحانيتان.. الحادبتان عليك.. كان يستند على سور الجامع..

يميل ويدخل الجورب فى قدمه..

يطير قلبك إليه..

يراك ويبتسم..

يلفه صمت طويل.. فلا ينطق.. لا يحادثك ولا يعترضك، ولا ينهض فيتركك.. ظل ينظر إليك ويبتسم..

لم يكن فى نيتك أن تصلى...

لكنك رأيته... فانفتحت السماء ولاح شعاع يضوى.. خف جرمك وكادت الريح تتلاعب بك..

كنت تريد أن تقول له أنك أدّيت عمرة له، وأنك رأيته يطوف معك.. يضع يده على الحجر الأسود ويدعو لك... يتخطى حجر إسماعيل ويسبقك..

ما الذى جاء به، فتلبسك.. وعلا فوقك، تفر الدمعة من عينيك...

والريح تسفى الرمال وتؤذيك..

تخرج من حالتك التى سكنت فيها، فبدوت كالحالم اليقظ.. وأنت ترى الوجه مرسومًا على الأفق، يلقى بضيّه، فتتلون نتف السحب بضوء أشهب كاللبن..

***

.. لم يأبه بمخاطر الصحراء، أو وحشة الخلاء، وأمعن فى المسير.. تعثرت قدماه فى الصخور، وانكفأ فى نقرات الرمال... يدور حول التلال وخلفها، يصعد ويسقط.. والمشهد عالق به، لا يفلته.. والهوان يحيطه ويعصره.. يهطل على جسده قطر دافئ كأنه صهد البدن..

رفع رأسه فتجلى الوجه يسد الأفق، تجور عليه البسمة ونغزة الخد كخوخة مدممة... والشعر من ورائه ينفلت ويتطاير..

يسعى إليه راكضًا، مهرولاً، ورامحًا.. ويقذف بجسده... إلى أين يأخذه الوجه، وينأى به؟ أيأخذه إلى بئر معطلة أو إلى هوة سحيقة تقبع فيها امرأة عجوز تكاد ترديه؟.

القلب يدق ويدفعه فيهرول.. رانيًا إليه فى ابتهال، لكنه يتأبى.. وصدره يرتعد، ولسانه يرتل مزامير الهوى...

والمساحة بينهما تتسع، والملامح تكاد تتبهم، والإصبع المفرود على الفم صارم كأنه سكين.. التاع قلبه خشية أن ينغرز... فيغلق الشفة... ويرسل الدماء..

عجز عن الوقوف..

وساءت حالته..

لماذا لا يرسل الوجه شعره ضفيرة من نور يتسلق بها إليه.. علها - هذه الحبيبة النائية.. المتبدية - تأخذه وتطويه وتبعده عن غربة قاتلة، ونفوس مخاتلة.

يعجز بصره عن النظر.. أيشكو غربته، وسقوطه، وعجزه عن أداء مطلبه؟.. أيسر إليه بعذابات الرحلة ومسراتها الشحيحة.. يجر قدميه الهوينى.. كأن الصحراء تصفده برملها وهو يخلع قدميه خلعًا..يستدبر الفراغ، والخلاء، والوحشة، ويغمض عينيه على وجه الأب المبتسم، ويخلع قدميه فى جهد ومثابرة من قبضة الرمال الحاكمة..

وضيّ النور الذى يتراسل من الوجه.. يترقرق على شريط الأفق الحاد.. ويخطف فى حركة مباغتة روحه التى ترقرقت هوى وهو يرى وجهه ينفلق نصفين كما يفعل القمر.

صدر للمؤلف

الإبداع:

- الخروج إلى النبع: رواية، مركز الحضارةط٢
- السيد الذى رحل: رواية، هيئة الكتاب ط٢ مكتبة الأسرة
- الضوء والظلال: رواية، هيئة قصور الثقافة ط٢ الكتاب الفضى
- حرث الأحلام: رواية، هيئة الكتاب
- من يقتل الحب: قصص قصيرة، هيئة الكتاب
- صدأ القلوب: قصص قصيرة، هيئة الكتاب
- البنات والقمر: قصص قصيرة، هيئة الكتاب
- ذات الشعر المنسدل: قصص قصيرة، هيئة الكتاب
- المدار: مسرحية، هيئة الكتاب
- الفيل الصغير: أطفال، هيئة الكتاب
- أنا وكلبتى: أطفال، هيئة الكتاب
- أنا لولو: أطفال، هيئة قصور الثقافة
- أعمال كاملة مجلد ١: هيئة الكتاب
- أعمال كاملة مجلد ٢: هيئة الكتاب

دراسات أدبية:

- نظرات فى قصص القرآن، ثلاثة أجزاء رابطة العالم الإسلامى.
- من جماليات التصوير فى القرآن، جزءان رابطة العالم الإسلامى.
- صورة المرأة فى قصص القرآن، مكتبة الحلبى.

- محمود البدوى.. عاشق القصة القصيرة، هيئة الكتاب.
- الفن و البساطة، دار الشعب.

قراءات نقدية:

- قراءة فى القصة القصيرة، هيئة الكتاب.
- الرؤى و الأحلام.. قراءة فى نصوص روائية هيئة الكتاب.
- الذات و الموضوع، هيئه الكتاب.
- السرد فى مواجهة الواقع
- قراءة فى القصة السعودية، مركز الحضارة.

صدر حديثًا:

- القصة فى القرآن الكريم، دار قباء.
- مقاصد الدين وقيم الفن.
- قصاقيص الهوى، قصص قصيرة أصوات أدبية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٧١٨ / ٢٠٠٥



الكاتب

محمد قطب

- ليسانس دار العلوم ١٩٦٢.
- دبلوم التربية ١٩٦٤.
- شغل وظيفة مدير عام النشر بهيئة الكتاب حتى عام ٢٠٠١.
- نائب رئيس تحرير مجلة القصة.
- عضو اتحاد الكتاب ونادى القصة.
- حصل على جائزة نجيب محفوظ فى الرواية ١٩٩٥ عن روايته [illegible] الظلال.
- أصدر عددًا من الروايات والقصة القصيرة والدراسات النقدية.
- يكتب فى الصحف والمجلات الأدبية
- يكتب عمودًا أسبوعيًا بجريدة المساء تحت عنوان نغمة للريح

النص الروائى يتعمق رؤية الآخر فى سرد استرجاعى يحيط بتجليات الزمان والمكان والذات ، وينصهر ذلك كله فى حركة روائية واحدة ، تنبىء عن الوعى الذى يتمثله الروائى عندما يناوش الآخر ، وفى الوقت ذاته يعى حركة الأصوات وانتقالاتها، وتجاوز الرؤى وتداخلها مع الاحتفاظ للذات بكينونتها الاجتماعية والنفسية الخاصة.